علي أبو مريحيل

عائد إلى المخيم

رواية

دار السفير للطباعة والنشر

طبعة أولى

2021

مقدمة

يرصد الكتاب التحولات التي مرت بها حركة التحرر الفلسطينية منذ نشأتها في ستينيات القرن الماضي، حتى إسقاطها خيار الكفاح ودخولها في تسوية سياسية، وذلك بأسلوب روائي يمزج بين المذكرات الشخصية وتسلسل الأحداث التاريخية. ينطلق المؤلف في سرديته الذاتية من تجربة والده النضالية الذي غادر فلسطين مطارداً من قبل الاحتلال عام 1969، وعاد بعد نحو ثلاثة عقود بموجب اتفاق أوسلو. تبدأ فصول الكتاب برحلة المسير الشاقة في صحراء سيناء، ومن ثم تتوالى المجريات بدءاً بأحداث أيلول الأسود في الأردن، مروراً بالحرب الأهلية اللبنانية وخروج القوات الفلسطينية من بيروت، وصولاً إلى توقيع اتفاق سلام مع إسرائيل وتأسيس السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة. يبرز المؤلف خلال هذه الفترات المتعاقبة تفاصيل دقيقة عن كل محطة ومرحلة، تشعر معها بأنه عاصر تلك الأحداث لحظة بلحظة، بل أكثر من ذلك، يوغل في الماضي البعيد ويستحضر أحداثاً ساهمت في تشكيل الوعي الثوري عند بطل الرواية حين كان طفلاً. في فصول لاحقة تدور أحداثها في مخيم البداوي للاجئين الفلسطينيين في لبنان، يسجل الكاتب ملاحظاته وانطباعاته الخاصة عن معنى اللجوء والكينونة الفلسطينية، ويسهب في تصوير أوضاع اللاجئين، وينقل صوراً ومشاهد دقيقة من أزقة وحارات المخيم. كما يجري مقاربة بين الصورة الرومانسية للوطن في مخيلة اللاجئ الحالم، والواقع الذي اصطدم به حين عاد إلى قطاع غزة بموجب اتفاق أوسلو، حيث سيشهد هناك بداية تأسيس السلطة الوطنية والحكم الذاتي المحلي، وسيرصد التحولات التي طرأت على المجتمع الفلسطيني في ظل واقع جديد يتناقض تماماً مع الصورة التي نحتها في قلبه وعلقها على جدران المخيم. يمكن تصنيف الكتاب ضمن الأعمال الروائية التي تناولت التجربة الوجودية للشتات الفلسطيني، لكن ما يعطي قيمة إضافية لهذه الرواية، الجمع بين ذاكرة جيلين فلسطينيين: جيل حمل البندقية وآمن بها، وآخر كان شاهداً على انحراف مسار الكفاح، قبل التورط في تسوية سياسية تهاوت فيها الحقوق، وتبخرت معها أحلام اللاجئين بالعودة!

الناشر

كنت صائماً ولم أفطر، كنت مؤمناً ولم أزل .. لم أكفر، وصلت هناك لكني لم أعد .. أنا الذي يفضّل توسد صندلاً في أزقة المخيم، على المبيت ليلة تحت زيتونة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار!

علي أبو مريحيل

كانت الساعة تشير إلى الغروب، حين بدت الشمس وكأنها تحاول إرجاء سقوطها المحتوم خلف التلال البعيدة رأفة بحال ذاك الشاب العشريني اللاهث وراء سراب ضوء على سفوح رمال أخذت شكل الكون مداراً ومدى. حيث كان ينبغي أن يصل قبل المغيب إلى جبل الراحة غرب شبه جزيرة سيناء، كي يلحق بدليل مصري أوكلت له مهمة تهريبه هو واثنين من رفاق النضال، عبر إيلات إلى مدينة العقبة جنوب الأردن.

أخيراً، تمكن صقر الدين من الوصول في الموعد المحدد، دون أن يدري أن ما تكبده من عناء في الطريق بين قطاع غزة ومدينة العريش، ليس سوى بروفة لرحلة شاقة ستستمر ثلاثين يوماً تحت شمس حارقة تكوّرت لهباً وجحيماً في صيف عام ١٩٦٩.

فوق أطنان من رمال طُرزت بخطى أثقلها الظمأ والتعب، لم تفارق مخيلته صور من آخر يوم له في المخيم: أصوات خافتة تقرأ الفاتحة فجراً على نية التوفيق. مداولات تقضي بأن تقوم شقيقته الوسطى بحمل لغم أرضي بين أرغفة الخبز إلى الطريق العام حيث تسير دوريات عسكرية إسرائيلية بين مركز شرطة النصيرات ونقطة تفتيش في شارع صلاح الدين. تهليل وتكبير في أعقاب انفجار جيب عسكري يودي بحياة ضابط وجرح ثلاثة جنود. أصداء العملية في أرجاء المخيم. خبر اعتقال أحد أفراد المجموعة. طرقات شديدة على شباك غرفته المطل على زقاق ضيق. صوت توفيق: انفضح أمرنا! رائحة الماعز في شاحنة بيضاء تشق غياهب بيّارة تفضي إلى الحدود المصرية.

في اليوم التاسع بعد العشرين، تسلل إلى نفسه شعور بأن أموج الرمال الملتهبة لن تقذفه إلى أرض ثابته، فبدت الصحراء وكأنها تنين جائع يقتفي أثر التائهين لابتلاعهم. لم تهدئ من روعه تأكيدات الدليل بأنهم على مشارف غروب واحد من الوصول إلى رأس النقب.

كان ذلك اليوم الأطول في شهر المسير بعد نفاذ جعبتهم من الطعام الذي كان عبارة عن خليط من طحين معجون بماء ملوث (سيكتشف لاحقاً في

العاصمة الأردنية عمان، إصابته بالبلهاريسيا وأمراض أخرى في المعدة).

صدق الدليل، ووصلوا بالفعل في الوقت المحدد إلى منطقة إيلات، كان عليهم الانتظار حتى غروب الشمس لقطع وادي اليتم الحدودي، لضمان خلو المنطقة من الدوريات العسكرية. تم الأمر بسلام ويسر، وما هي إلا ساعات حتى أصبحوا داخل الأراضي الأردنية، بينما عاد الدليل المصري أدراجه بعد ملء زوادته بما يعينه على قطع طريق العودة.

في خيمة نصبها لهم جماعة من عرب الإيحيوي، غطّ الثلاثة في نوم عميق، لم يستيقظوا إلا بعد منتصف نهار اليوم التالي، حيث جاءت سيارة تابعة لمكتب حركة فتح في العقبة لتقلهم إلى مدينة معان، ومن ثم إلى العاصمة عمان.

مكثوا يوماً في فندق العربي قبل أن يتوجهوا إلى مكتب الإدارة العسكرية في جبل الحسين. بعد أسبوعين، صدر أمر بالسفر إلى العراق، للالتحاق بدورة عسكرية، وكان صقر من ضمن الذين تم اختيارهم لهذا الغرض، فيما بقي رفيقاه في معسكر تدريب بالأردن. كانت هذه المرة الأولى التي يخضع فيها لدورة عسكرية متقدمة، على خلاف الدورات البدائية التي تلقاها حين كان متطوعاً في مراكز التعبئة والتجنيد بقطاع غزة، قبل خمسة أعوام.

وصل المقاتلون على متن خمسة باصات، إلى معسكر منعم بشارع الرشيد في بغداد، وكان في استقبالهم ممثل عن الرئيس العراقي آنذاك أحمد حسن البكر، حيث كانت هناك توجيهات من القيادات العربية بإقامة معسكرات لتدريب الفلسطينيين على حمل السلاح، خصوصاً في الجزائر، وسوريا، ومصر، والعراق، بالإضافة إلى الصين التي كانت أول دولة غير عربية تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية، وتقيم مكتباً لها في العاصمة بكين.

ذات صباح هادئ، خال من صيحات المقاتلين التي كانت تلهب المعسكر حماسة وضجيجاً، وبينما كان صقر منهمكاً في تنظيف سلاحه، اقتحم خيمته رجل أبيض البشرة، طويل القامة، طاعن في السن، كأنه مارد خرج

من فانوس سحري..

ـ معك سيجارة؟

ـ نعم

ـ اسمي أبو السعيد نور الدين، من مجموعة تنظم فتح في الكويت.

ـ وأنا صقر الدين أحمد، من مجموعة الأردن، لكن ما الذي أوصلك الكويت؟

ـ أنا في الأصل من جنين، كنت في الحزب الشيوعي الإسرائيلي ثم طردت من قبل السلطات إلى الأردن، وهناك حصلت على جواز سفر أردني وأعمل الآن في الكويت بموجب عقد عمل.

على عكس مظهره الذي يوحي بشراسة شديدة، كان لسان أبو السعيد يقطر من الكلام المعسول ما يجعله قادراً على كسب مودة كل من يجالسه. فلم تمض أيام في المعسكر حتى تمكن من نيل ثقة جميع المقاتلين.

بعد انتهاء الدورة التي استمرت ثلاثة أشهر، لم يعد أبو السعيد إلى الكويت، بل رافق مجموعة الأردن واستقر به المقام في قاعدة الشهيد منهل شديد بقرية رميمين، قبل أن يصبح مسؤلاً إدارياً عن المقاتلين في القاعدة. (لاحقا بعد سنوات، سيلتقي صقر بأبو السعيد للمرة الأخيرة في بيروت، وهناك ستكون لقصته بقية .. أو خاتمة مستحقة!

في الأول من يناير عام ١٩٧٠ أجرى المقاتلون الفلسطينيون أول مناورة بالذخيرة الحية في الأردن، وذلك بمناسبة الذكرى الخامسة لانطلاقة حركة فتح. بعد تلك المناورة تشكلت القوة المحمولة التي اعتبرت الذراع الضاربة للثورة الفلسطينية آنذاك. وكان صقر أحد عناصر هذه القوة بموقع «آمر طاقم دوشكا» في الوحدة الثالثة التي أوكلت لها مهمة إسناد العمليات العسكرية. وشارك في أول عملية عسكرية في القطاع الأوسط «تلة النجار» لمساعدة انسحاب الفدائيين الفلسطينيين إلى منطقة الأمان شرقي نهر الأردن بعد ضرب أهداف إسرائيلية .

توالت بعد ذلك العمليات العسكرية لحركة فتح انطلاقا من الأراضي الأردنية، وقد شارك صقر في معظم تلك العمليات، منها: إطلاق صواريخ كاتيوشا على المستعمرات الإسرائيلية في غور بيسان، واستهداف مطار الجفتلك في القطاع الأوسط بصواريخ جراد ١٢٢، واشتباك مع قوات إسرائيلية في غور صافي شمال الكرك. بالإضافة إلى عملية نوعية مشتركة مع الاستخبارات العسكرية المصرية، استهدفت مستعمرات إسرائيلية قريبة من الشريط الحدودي.

في مايو عام ١٩٧٠ توجه صقر ضمن القوة المحمولة من الأردن إلى جنوب لبنان للدفاع عن قواعد الثورة في العرقوب، وذلك بعد قرار الجيش الإسرائيلي مهاجمة تلك القواعد على إثر استهداف مستعمرة كريات شمونا شمال الأراضي المحتلة بصواريخ جراد. في الطريق إلى الجنوب اللبناني عبر الحدود السورية، أمر وزير الدفاع السوري آنذاك حافظ الأسد، بعدم السماح للقوات الفلسطينية بعبور الحدود، وبعد مفاوضات حثيثة سمح لهم بالمرور، ولكن بعد فوات الأوان، فبمجرد وصولهم إلى جسر الحاصباني كانت القوات الإسرائيلية قد بدأت هجومها على العرقوب، فاحتلت رويسات العلم والهبارية وقاعدة الشهيد صلاح، وتمكنت من دحر المقاتلين الفلسطينيين، مما اضطر القوة المحمولة للعود إلى الأردن بعد ٣٦ ساعة من وصولها إلى منطقة الحاصباني.

في يوليو من نفس العام، أوكلت للقوة المحمولة في قاعدة الشهيد غازي في الشؤون الجنوبية بمنطقة الأغوار، مهمة إسناد عملية عسكرية ضد أهداف إسرائيلية نفذتها مجموعات فدائية مشتركة بين حركة فتح والجبهتين الشعبية والديمقراطية. وعلى إثر تلك العملية تقدم الجيش الإسرائيلي لأول مرة حتى دير المغطس، ولم يكن يفصله عن الحدود الأردنية إلا النهر، في تلك الأثناء نهر قائد مجموعة الإسناد عزمي الصغير، كتيبة الجيش الأردني الموجودة في برج المراقبة رقم (٣)، متسائلاً: لماذا لا تطلقون النار على القوات الإسرائيلية، لماذا لاتغطون انسحاب الفدائيين، لتأتي الإجابة من ضابط في الجيش الأردني، بأنه ليست لديهم أوامر بإطلاق النار، وإنهم ملتزمون باتفاقية روجرز.

كانت الأردن قد وافقت على المبادرة السياسية التي قدمها وزير الخارجية الأمريكي وليم روجرز، في يونيو عام ١٩٧٠، وذلك في ظل تصاعد حدة التوتر في المنطقة، حيث كانت مصر قد بدأت حرب استنزاف ضد إسرائيل عام ١٩٦٩، بينما كثفت القوات الفلسطينية هجماتها العسكرية ضد أهداف إسرائيلية انطلاقاً من الأراضي الأردنية، أيضاً كانت إسرائيل في تلك الأثناء قد اجتاحت الجنوب اللبناني.

وهدفت المبادرة التي عرفت باسم «اتفاقية روجرز» إلى وقف إطلاق النار تمهيداً لتنفيذ قرار مجلس الأمن ٢٤٢، وتهيئة الأجواء لإطلاق محادثات سلام في المنطقة تشمل مصر والأردن وسوريا وإسرائيل.

وهو الأمر الذي رفضته منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا والعراق، فيما وافقت عليه مصر والأردن، ما أدى إلى انقسام في الصف العربي، حيث صدرت بيانات عربية خجولة تأيد ضمنياً الاتفاق، باستثناء الجزائر الذي أصدرت بياناً أكدت فيه على أن الكفاح المسلح هو الخيار الوحيد الذي يلبي أماني الشعوب العربية.

في تلك الليلة التي شهدت امتناع الجيش الأردني عن إطلاق النار على القوات الإسرائيلية، دار نقاش بين أفراد القوة المحمولة في قاعدة الشهيد

غازي، حول تداعيات اتفاقية روجرز، وتأثيرها على مسار الصراع العربي الإسرائيلي.

وكان هناك إجماع على أن قبول القاهرة وعمان المبادرة الأمريكية، سيؤدي إلى صدام بين النظام الرسمي في الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية، لأن وقف إطلاق النار يعني حظر الأنشطة الفدائية.

كما أن بيان منظمة التحرير الفلسطينية الرافض لاتفاقية روجرز، نص على أن قبول المبادرة الأمريكية يحمل اعترافاً ضمنياً بإسرائيل، وتنازلاً عن الحقوق الفلسطينية، وأن الانسحاب من الأراضي التي احتلت عام ١٩٦٧، سيعطي شرعية للاحتلال الإسرائيلي على باقي الأراضي الفلسطينية بما فيها القدس.

على خلاف بعض رفاقه الذين أبدوا تفهماً فيما بينهم للموقف الأردني، كون الأردن واحداً من أكثر الدول العربية تضرراً بنكسة حزيران، (فقد الضفة الغربية والقدس، واستقبل عشرات الآلاف من اللاجئين الفلسطينيين)، ذهب صقر بعيداً في تحليله وقراءته للأحداث، كان يعتقد بأن الموقف الأردني لا ينطلق من الحرص على الأمن والاستقرار والسيادة في المملكة، بل من رغبة حقيقية في الدخول بتسوية سياسية لحل الصراع العربي الإسرائيلي. معتبراً ذلك جزء من مخطط صهيوني يهدف إلى رفع الغطاء العربي عن منظمة التحرير الفلسطينية تمهيداً للانقضاض عليها. وما احتلال الأراضي العربية عام ١٩٦٧ سوى مناورة لتوريط دول الطوق في اتفاقيات سلام تسترد بموجبها أراضيها المحتلة، غير أن ثمن ذلك هو الخروج من دائرة الصراع لضمان عدم الاشتباك أو خوض حروب مستقبلية.

في تلك الأثناء كان الصدام واضحاً بين منظمة التحرير التي حملت أحلام الفلسطينيين في دحر الاحتلال واستعادة الأراضي المحتلة، وبين النظام السياسي في الأردن الذي بدأ يسلك مساراً جديداً يتعارض مع طريق الكفاح والتحرير.

وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير، قيام عناصر من الجبهة الشعبية

الفلسطينية في سبتمبر من عام ١٩٧٠، بخطف ثلاث طائرات أجنبية واحتجاز ركابها في مهبط عسكري بالأردن للمطالبة بإطلاق سراح سجناء فلسطينيين في المعتقلات الإسرائيلية. وحين لم تتم الاستجابة لمطالب الخاطفين، عمد فدائيو الجبهة إلى تفجير الطائرات على مرأى ومسمع من وسائل الإعلام العالمية.

فقد بدت منظمة التحرير الفلسطينية بفصائلها ومختلف أذرعها العسكرية وكأنها دولة داخل دولة، من حيث انتشار قواعد الفدائيين داخل المدن، وتنامي نفوذ ياسر عرفات إلى حد أحرج وأزعج المملكة الأردنية التي رأت في ذلك تهديداً لسيادتها ومساً لهيبة المملكة، خصوصاً وأن المنظمة كانت تحظى بدعم من جهات سياسية هي نتاج انقلابات عسكرية على أنظمة ملكية مثل مصر والعراق.

في أعقاب عملية الجبهة الشعبية، تم تشكيل حكومة جديدة بصبغة عسكرية ترأسها آنذاك محمد داوود، كما تم تعيين حابس المجالي قائداً جديداً للجيش، حيث بدا أن القيادة الأردنية تعد العدة للانقضاض على القوات الفلسطينية. وقبل يوم واحد من ذلك، كانت المفاوضات تجري بين الطرفين بصورة طبيعية، وإن كان ياسر عرفات قد رفض آنذاك استقبال قائد الجيش الأردني، وأرسل الرئيس الفلسطيني الحالي محمود عباس للتفاوض باسم فصائل منظمة التحرير.

وما كان لافتاً في تلك المفاوضات الخاطفة، الشروط الثلاثة لفصائل المنظمة للقبول بالتفاوض على النقاط الأساسية مع الجانب الأردني، حيث طلب عباس حل الحكومة العسكرية، وتشكيل حكومة أخرى مدنية يكون للمنظمة دور في تشكيلها، وإخراج التواجد العسكري للجيش الأردني من العاصمة عمان مع الإبقاء على عناصر الشرطة ولكن دون حمل السلاح (استبدال الأسلحة بالعصي).

ما تقدم يشير إلى حجم النفوذ الذي كانت تتمتع به فصائل منظمة التحرير الفلسطينية في المملكة، وهو ما دفع القيادة الأردنية إلى حسم أمرها في شن

هجوم عسكري يهدف إلى استئصال فصائل منظمة التحرير كافة، حيث كانت قد أعدت خطة مسبقة قبل عقد المفاوضات، أطلقت عليها اسم خطة جوهر. ولم يكن إبداء الرغبة في التفاوض مع ياسر عرفات آنذاك سوى مناورة سياسية لكسب الوقت وضمان انتشار وتمركز القوات الأردنية في محيط عمان تمهيداً للانقضاض على المخيمات الفلسطينية.

قبل أيام من بدء الهجوم الأردني، صدرت الأوامر للقوة المحمولة بالتوجه إلى مخيم الوحدات في العاصمة عمان، تمركز صقر ومجموعته شرقي مستشفى الأشرفية، وكانت مهمتهم الدفاع عن المخيم وجبل الجوفة، وكما كان متوقعاً، بدأ الجيش بضرب المخيم بقذائف الهاون والمدافع الثقيلة، ومع اشتداد الاشتباكات التي استمرت ١٣ يوماً، شارك في الهجوم سلاح الجوي الأردني، ما أدى إلى سقوط عدد كبير من المدنيين الفلسطينيين في المخيم.

بعد سقوط المخيم، انسحبت القوات إلى مستشفى الأشرفية، وكان صقر ومن معه شهوداً على قيام أفراد من الجيش الأردني بحفر خندق كبير جنوب المستشفى لدفن رفات القتلى الفلسطينيين، في محاولة منهم لإخفاء معالم الجريمة. فيما بعد أقام رجال الثورة الفلسطينية نصباً تذكارياً للشهداء فوق الخندق، غير أن السلطات الأردنية هدمته ومنعت إنشاء أي بناء في المنطقة من شأنه أن يشير إلى تلك الجريمة.

مع اشتداد الاشتباكات بين فصائل منظمة التحرير والجيش الأردني، وصل عدد من الزعماء العرب إلى العاصمة عمان في محاولة لتهدئة الأجواء، ومن بين هؤلاء الرئيس السوداني السابق جعفر النميري. أيضاً أرسلت بعض الأنظمة قواتها لمساندة فصائل المنظمة، حيث أرسل النظام السوري بقيادة الأتاسي، ثلاثة ألوية مدرعة، ولواء كومندوس، ولواء من المقاتلين الفلسطينيين، بالإضافة إلى أكثر من مئتي دبابة من طراز تي-٥٥.

وصلت الدبابات السورية إلى قرية النعيمة جنوب إربد في طريقها إلى جرش ومن ثم إلى عمان، أثناء ذلك جرى انقلاب داخل الجيش السوري

بقيادة الفريق حافظ الأسد الذي كان وزير الدفاع وقائد سلاح الجو السوري آنذاك، فأمر القوات بالعودة إلى الأراضي السورية، وتزامن هذا الأمر مع تحرك قوات عين جالوت الفلسطينية الموجودة في مصر عبر الحدود السورية باتجاه الأردن، غير أن نجاح الانقلاب السوري حال دون وصولهم لمساندة أشقائهم الذين كانوا يتعرضون لمجزرة جماعية.

أيضاً كان هناك انشقاق آخر داخل الجيش الأردني من قبل الفلسطينيين الذين يخدمون في الجيش، وقاد ذلك الانشقاق سعد صايل أبو الوليد، فشكلت تلك القوات التي انضمت إلى الثورة الفلسطينية، ما بات يعرف باسم قوات اليرموك .

لم تفلح جميع الجهود العربية في وقف نزيف الدم، رغم الوساطات والزيارات المتكررة للزعماء والمسؤولين العرب، الأمر الذي دفع الزعيم المصري الراحل جمال عبد الناصر، إلى عقد قمة عربية طارئة لبحث سبل حل الأزمة وتدهور الأوضاع بين الفلسطينيين والنظام الأردني.

في الثالث والعشرين من سبتمبر ١٩٧٠، عقدت جامعة الدول العربية اجتماع قمة في القاهرة بمشاركة ممثلين عن تسع دول عربية هي: مصر والسعودية ولبنان وليبيا والسودان والكويت وتونس واليمن الشمالي واليمن الجنوبي، بينما قاطعت القمة كل من سوريا والعراق والجزائر والمغرب، كما اعتذر الملك حسين عن حضور القمة وأرسل وفداً أردنياً حكومياً برئاسة محمد داوود.

ظهر اتجاه أثناء القمة يطالب بإرسال قوات عربية مشتركة إلى الأردن للدفاع عن الثورة الفلسطينية، وهو الأمر الذي رفضه عبد الناصر، معتبراً أن المهمة الأساسية لانعقاد القمة هو وقف القتال وتهدئة الأجواء لإتمام المصالحة بين الجانبين.

في تلك الأثناء كان الجيش الأردني قد ألقى القبض على قيادات المنظمة في عمان، ومن بينهم صلاح خلف أبو إياد، وفاروق القدومي، بينما تحصن ياسر عرفات في جبل اللويبدة. ومع اشتداد الاشتباكات وتأزم الأوضاع

أرسل جمال عبد الناصر، محمد صادق رئيس أركان القوات المسلحة المصرية في مهمة سرية تهدف إلى إحضار ياسر عرفات حياً إلى القاهرة، باعتباره يمثل الرمز الفلسطيني.

توجه صادق إلى الأردن برفقة وفد عربي ضم الرئيس السوداني جعفر النميري، التقى الوفد بالملك حسين ومن ثم وجه نداء عبر الإذاعة الأردنية لياسر عرفات قرأه النميري، وجاء فيه: "الأخ المناضل ياسر عرفات، باسمي شخصياً ونيابة عن الوفد الذي وصل إلى عمان هذه الليلة، نرجو منكم أن تقترحوا علينا كيف يمكن الاتصال بكم ومكان وموعد الاجتماع، وبأي وسيلة متاحة، وبما أن الأمر هام وعاجل فأرجو تحقيق ذلك حالاً .. نكرر حالاً وشكراً".

وبعد ساعة من بث الرسالة، وجه ياسر عرفات نداء عبر أثير راديو اللجنة المركزية في دمشق جاء فيه: سيادة الأخ الرئيس اللواء أركان حرب جعفر محمد النميري، سمعت نداءكم الموجه إلينا عبر إذاعة عمان من أجل لقاء عاجل وفوري يجمعنا، وتلبية لندائك أقول: ليكن الاجتماع الليلة وفي حدود الساعة الواحدة، ونقترح أن تصلوا سيادتكم عبر الطريق الموصل من فندق الكرمان إلى مدرسة عالية إلى مقر سفارة الجمهورية العربية المتحدة في جبل اللويبدة، ويصلكم مندوب من طرفنا ليرافقكم إلى مقر الاجتماع، لقد عممنا على قوات الثورة فى جبل اللوبيدة لتأمين وصولكم وعدم التعرض لسيادتكم، وسيكون أكثر أمنا لمسيرتكم لو شددتم على الطرف الآخر بالتقيد بوقف إطلاق النار في الجبل هذه الليلة، وإلى أن نلتقي بكم، لكم التحية من إخوانكم المناضلين".

وبالفعل تم اللقاء، وعلى إثر ذلك توجه عرفات إلى السفارة المصرية في عمان، ونجح صادق في نقله إلى القاهرة متخفياً ضمن وفد بعثة جامعة الدول العربية. (قام عرفات بحلق ذقنه ولبس عباءة بيضاء وركب بجانب سيدة مصرية وابنتها في سيارة اتجهت من مقر السفارة إلى مطار عمان، ومن هناك إلى اجتماعات القمة العربية مباشرة، حيث كان في انتظاره جمال عبد الناصر).

تم الاتفاق على الوقف الفوري لجميع العمليات العسكرية، والانسحاب العاجل للقوات الأردنية والفلسطينية من العاصمة عمان، وإرجاعها إلى قواعدها الطبيعية، وإطلاق المعتقلين من كلا الجانبين، وتكوين لجنة عليا لمتابعة تطبيق الاتفاق. كما تم على هامش القمة إجراء مصالحة بين ياسر عرفات والملك حسين.

بموجب الاتفاق غادرت الفصائل الفلسطينية المدن الأردنية وتوجهت إلى الأحراش والغابات الشمالية عبر باصات تابعة للجنة المتابعة العربية، غير أن نشاط فصائل منظمة التحرير ظل مستمراً في الأردن، حيث نفذت المنظمة العديد من العمليات العسكرية ضد أهداف إسرائيلية انطلاقاً من الأراضي الأردنية.

في يونيو عام١٩٧١ وقبل شهر واحد من الهجوم على آخر معاقل فصائل المنظمة في الأردن بأحراش جرش، انتقلت القوة المحمولة إلى القطاع الغربي للمشاركة في تنفيذ عملية نوعية تهدف إلى ضرب العمق الإسرائيلي بصواريخ جراد ١٢٢، كان قائد تلك العملية أحمد حبش، وكان صقر ضمن مجموعة الإسناد. وقبل انطلاق المجموعة كتب حبش تفاصيل العملية وأسماء المشاركين في تنفيذها على ورقة بيضاء وضعها بظرف صغير، وطلب من أحد أفراد المجموعة تسليم الظرف لأبو القاسم مسؤول تنظيم حركة فتح في مخيم البقعة، وأمر بعدم فتحه قبل أن تعترف الإذاعة الإسرائيلية بالعملية .

انطلقت المجموعة باتجاه نهر الأردن، وعند وصولها إلى الضفاف رفضت البغال التي تحمل الصواريخ أن تعبر النهر، فاقترح صقر تغميتها بالكوفيات الفلسطينية التي كانت بحوزتهم، مما سهل عملية العبور باتجاه الضفة الغربية، وبعد قطع النهر قامت القوات بلفّ حوافر البغال بجلود خراف ميتة مخمرة بالفلفل الأسود، كما كانوا يحتفظون بفضلاتها في أوعيتهم لعدم ترك أي أثر من شأنه أن يساعد الجيش الإسرائيلي وكلابه البوليسية المدربة في العثور عليهم.

على بعد أمتار من الحدود، تفاجأت المجموعة بحقل ألغام إسرائيلي، فقام أحد أفرادها وهو مهندس متفجرات يدعى أبو الوفا، بفتح طريق آمن، فكتب الشباب على قصاصات ورق صغيرة «فتح مرت من هنا»، ونثروها في أرجاء المكان. وبالفعل نجحت المجموعة من العبور والوصول إلى الشارع العام المؤدي إلى مطار الجفتلك بالقرب من قرية عقربة، بينماعادت فرقة الإسناد أدراجها إلى أحراش جرش .

في وقت لاحق من نفس اليوم اعترفت إسرائيل بأن الصواريخ أصابت مستشفى للأمراض العقلية، وفور العملية صرح وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك، موشي ديان، بأنه سيتمكن من المخربين وسيكون مصيرهم الموت.

فيما بعد التقى صقر بأحد أفراد المجموعة في لبنان، وسأله عن أحداث العملية، فأفاد بأنهم وقعوا في كمين إسرائيلي أثناء عودتهم، وتعرضوا لنيران كثيفة، وأن عدداً قليلاً منهم تمكن من العبور إلى الضفة الشرقية، أما باقي أفراد المجموعة فاستشهدوا جميعاً.

رغم الانطباع الإيجابي الذي كان سائداً بعد توقيع اتفاق القاهرة وتمركز فصائل منظمة التحرير الفلسطينية في منطقة عجلون - جرش، فإن قيادة المنظمة كانت على يقين بأن هناك نية مبيتة لدى الجانب الأردني لتصفية الثورة الفلسطينية واستئصال جذورها من الأراضي الأردنية.

ففي الثالث عشر من يوليو ١٩٧١، شن الجيش هجوماً واسعاً على القواعد الفلسطينية في المنطقة، بذريعة عدم انضباط الفدائيين والتسبب بالإزعاج للسكان. واستخدم في الهجوم الذي أشرف عليه رئيس الوزراء آنذاك وصفي التل، سلاح الطيران والدبابات والصواريخ المدفعية.

تمكن الجيش بعد محاصرة مجموعات الفدائيين البالغ عددهم حوالي ألفي شخص، من القضاء على آخر معاقل منظمة التحرير في الأردن، وقد سمي الهجوم بمعركة الأحراش، وقتِل فيه عدد كبير من القيادات الفلسطينية من بينهم: أبو علي إياد، كما تم أسر المئات، فيما تمكن حوالي خمسمئة فدائي من الانسحاب والتوجه إلى سوريا.

وفي مؤتمر صحفي عقد في السابع عشر من يوليو، أعلن الملك حسين، بأن الجيش الأردني فرض سيطرته على الأرض، وأن السيادة أعيدت إلى المملكة.

كان صقر من بين الذين تم اعتقالهم في تلك المعركة، حيث تم تجميعهم في شاحنات تابعة للجيش الأردني، ونقلهم إلى القاعدة الجوية بالمفرق، ومن ثم إلى معتقل الجفر في صحراء الأردن، ودام اعتقاله ٤٥ يوماً.

في اليوم الأول له في السجن، كان صقر يبلغ من العمر ٢٤ عاماً وشهراً واحد وتسعة أيام، لم يكن آنذاك قد خبر تجربة الاعتقال من قبل، كما أنه لم يتوقع أن يكون اعتقاله الأول في سجن عربي، وهو الذي فر من قطاع غزة في الثانية والعشرين من عمره، مطارداً من قوات الاحتلال الإسرائيلية بسبب نشاطه الثوري.

بين عشرات المعتقلين الفلسطينيين في أحد مهاجع معتقل الجفر، لم تشغله أسراب القمل التي كانت تتسلل عبر شعره من رأس سجين إلى آخر، ولا حتى آثار العصي والسياط التي أكلت من لحمه ما كشف عورة العظم، فقط كان محاصراً بعشرات الأسئلة حول مستقبل حركة التحرر الفلسطينية بعد القضاء عليها في الأردن. فخسارة جبهة خلفية بامتداد ٣٦٠ كلم مع الأراضي المحتلة، كانت بمثابة هزيمة استراتيجية للحركة، لأن البدائل الأخرى كانت محدودة جداً، بل تكاد تقتصر على الساحة اللبنانية التي لديها شريط حدودي مع إسرائيل، لكنها غارقة حتى الركب في وحل الطائفية!

أيضاً كان يشغله حلم العودة إلى بئر السبع، تلك المدينة التي بالرغم من أنه لم يعش فيها سوى عام واحد قبل النكبة، فإنه تمكن من أن يحتفظ بأدق تفاصيلها في ذاكرته، من خلال حكايات والده الحاج علي الذي عاصر أبرز الأحداث التي مرت بها المدينة منذ وقوعها تحت الانتداب البريطاني، مروراً بمعركة بئر السبع في ثلاثنيات القرن الماضي، وصولاً إلى التهجير القسري عام ١٩٤٨.

ولعل الجملة الأبرز التي كانت ترد إلى مسامعه في صباه بغزة، بأن السبعاوي أول من يموت وآخر من يستسلم، ولتلك الجملة علاقة بتاريخ المدينة التي تقع على بعد ٧١ كم جنوب غرب القدس، وتمتد على مساحة ٨٤ كلم مربع، وتعتبر أقدم وأكبر مدن فلسطين التاريخية.

فأثناء شن العصابات الصهيونية في الخامس عشر من مايو عام ١٩٤٨، هجوماً واسعاً على المدن والقرى الفلسطينية، ما أدى إلى تهجير أكثر من سبعمئة ألف من سكانها وتحويلهم إلى لاجئين فيما بات يعرف لاحقاً بمصطلح النكبة، كان المقاتلون في بئر السبع يدافعون عن مدينتهم ببسالة، مستغلين تركيز القوات الإسرائيلية على المدن والمناطق الشمالية. وقد تشكلت الوحدات المقاتلة من متطوعين عرب (وصل عددهم حوالي خمسمئة مقاتل) بالإضافة إلى مقاتلين من غزة، إلى جانب وحدات القبائل البدوية التي قادها آنذاك عبد الله أبو ستة.

بعد الانتهاء من احتلال معظم المدن والقرى الفلسطينية، قررت سلطات الاحتلال في منتصف أكتوبر من نفس العام، إرسال تعزيزات عسكرية إلى منطقة الجنوب التي ظلت عصية على الكسر، وكانت مدينة بئر السبع، هدفاً أساسياً باعتبارها حاضرة النقب، ومركزاً إدارياً وتجارياً في الجنوب.

استمرت المعركة عدة أيام، وساعد في طول أمدها، ما غنمه المقاتلون الفلسطينيون من مدافع ومدرعات أثناء الثورة العربية الكبرى عام ١٩٣٨. وحين تعذر السيطرة على المراكز الأساسية في المدينة استخدم الاحتلال سلاح الجو، وكثف ضرباته على أمكان تواجد المقاتلين، ما أدى إلى سقوط خسائر فادحة في الأرواح، حيث استشهد أكثر من خمسين مقاتلاً في يوم واحد. وبعد نفاذ الذخيرة لجأ المقاتلون إلى السلاح الأبيض، ودارت فصول من حرب شوارع استمرت حتى آخر يوم من سقوط المدينة في الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٩٤٨، لتكون بذلك آخر المدن الفلسطينية التي تقع في قبضة الاحتلال الإسرائيلي.

أيضاً ما ظل عالقاً في ذاكرة صقر، أحداث معركة بئر السبع التي دارت رحاها في التاسع من أيلول عام ١٩٣٨، ضمن معارك الثورة الفلسطينية الكبرى ضد قوات الاستعمار البريطاني والمستوطنين الإسرائيليين.

في ذلك الوقت كانت الإدارة البريطانية تظن بأن شرارة الثورة لن تصل إلى الجنوب، نظراً لقلة المستوطنين الصهاينة والانكليز في تلك المناطق، لكنهم تفاجأوا بقوات منظمة ومجهزة بالسلاح والعتاد بقيادة عبد الحليم الجولاني، الذي تمكن من نقل الثوار من الخليل إلى محيط مدينة بئر السبع. وفي تلك الأثناء كانت قوات أخرى من غزة قد وصلت إلى المدينة من حدودها الغربية، بينما كانت مجموعات مقاتلة من الداخل قد تلقت إشارة للبدء بالهجوم على مركز للقوات البريطانية.

ولم تمض دقائق حتى تمكن الثوار من الاستيلاء على مركز حكومي، ومخزن للذخيرة، كما تمكنوا من تحرير عدد من السجناء الفلسطينيين والعرب، وقاموا بتسليحهم، وكان مما ساهم في سيطرة الثوار على المدينة في تلك المعركة، بقاء مجموعات من المقاتلين مرابطين حولها لقطع الإمدادت العسكرية عنها، ما أظهر كفاءة عالية في التنسيق والتنظيم، فاجأت المستعمر البريطاني وكبدته خسائر كبيرة.

تلك الوقائع التي كان يسمعها صقر في مجلس والده، جعلته يشعر منذ صباه بالفخر والحماسة لكونه سبعاوياً، وقد كانت فيما بعد سبباً في التحاقه بقوات الثورة الفلسطينية عام ١٩٦٨. فبعد النكسة ووقوع غزة تحت الاحتلال الإسرائيلي، قامت حركة فتح بتجنيد مئات الشباب في القطاع، بهدف توجيه ضربات للجيش الإسرائيلي من الداخل، وقد نجحت بعض العمليات في تكبيد الاحتلال خسائر محدودة، بينما فشلت وانكشفت معظمها بسبب عدم التنظيم وغياب التنسيق، فضلاً عن كون الأسلحة المتوفرة خفيفة ومحدودة.

بعد شهر من اعتقاله في سجن الجفر، خضع صقر للتحقيق من قبل المخابرات الأردنية، وكانت تلك الجلسة الثالثة والأخيرة ليتقرر بعدها

مصيره. لم يثبت عليه بأن يديه ملطختان بدم أردني، وبالتالي نجا من عقوبة السجن المؤبد، فتقرر الإفراج عنه بعد أسبوعين من تلك المقابلة.

وحين سأله زملاؤه في السجن عما دار بينه وبين المحقق، قال صقر: حين قرأ ضابط المخابرات اسمي، سألني إن كنت من بئر السبع، فأجبت: نعم، فأخبرني بِأنه كان ضمن الحامية الأردنية التي أوكلت لها مهمة التوجه إلى بئر السبع ضمن جيش الإنقاذ العربي عام ١٩٤٨، وأنه يعرف الكثير عن تاريخ المدينة.

وتابع: سوف أوجه لك سؤالاً، فإذا كانت إجابتك صحيحة سأختصر عليك الكثير من الوقت في السجن: لماذ سمّيت بئر السبع بهذا الاسم؟ أجاب صقر مبتهجاً، هناك روايتان، الأولى تقول نسبة إلى سبعة آبار حفرها سيدنا إبراهيم كما ورد في سفر التكوين، أما الرواية الثانية فتقول بأن المدينة سميت بذلك نسبة إلى سبع كان يتردد على بئر فيها. فقالت الضابط: وأنت إلى أي الروايتين تميل، فقال صقر: بالطبع إلى رواية السبع، لأن الرواية الأولى عبرية تحاول أن تنزع ملكية المكان من سكانه الأصليين. فعلق الضابط: وأنا أراك ذاك السبع!

بعد الإفراج عنه، عمل صقر لمدة عامين في شركة للأجهزة الكهربائية بالعاصمة الأردنية عمان، حاول خلال تلك الفترة الالتحاق بقواعد الثورة في لبنان عبر سوريا، لكنه لم ينجح بسبب حمله وثيقة سفر مصرية لا يوجد عليها تأشيرة دخول إلى الأراضي السورية.

في إحدى المرات أوقفته القوات السورية على الحدود بين البلدين، وعنفته وأرغمته على الرجوع بصورة غير آدمية، وفي طريق العودة سأل أحد المقيمين في المنطقة الحدودية عن سبل المرور بالطرق الالتفافية، ليتمكن بعد عناء ومغامرة خطيرة، من الوصول سيراً على الأقدام إلى مدينة درعا، كان ذلك في واحدة من أقسى ليالي الشتاء وأشدها برداً عام ١٩٧٣.

بعد أن مكث يوماً في تلك المدينة، توجه إلى مكتب التنظيم والإدارة التابع لمنظمة التحرير في السبع بحرات بالعاصمة السورية دمشق، ومن هناك غادر سوريا عبر باصات الثورة، متوجهاً إلى الجنوب اللبناني، حيث وصل إلى منطقة العرقوب، مركز تجمع القوات الفلسطينية بعد خروجهم من الأردن، والتحق بالقوة المحمولة التي كانت متواجدة في خربة روحا، وأم دوخا، وراشيا الوادي، وينطا، وكفركوك. واختاره قائد المنطقة آنذاك حمزة عواد، لتدريب الشباب الملتحقين حديثاً بالثورة في معسكر حلوة. وبعد فترة توجه إلى البقاع لتدريب عناصر من حركة فتح في معسكر ثعلبايا.

في تلك الأثناء كانت الساحة اللبنانية تتأهب للدخول في حرب أهلية، نتيجة الانقسام الحاد بشأن الموقف الرسمي من المقاومة الفلسطينية التي وجدت في الجنوب اللبناني ضالتها بعد أن تلقت ضربة قاسية في أحداث أيلول الأسود.

لكن ذاك الانقسام لم يكن وليد تلك الفترة التي تحولت فيها لبنان في سبيعنيات القرن الماضي إلى ميدان عسكري وحيد للصراع بين فصائل منظمة التحرير والكيان الإسرائيلي.

فمنذ النكبة التي حلت بالشعب الفلسطيني عام ١٩٤٨ ونزوح عشرات

الآلاف من الفلسطينيين إلى لبنان، فرضت السلطات اللبنانية طوقاً أمنياً حول مخيمات اللاجئين، ومنعتهم من العمل وحرمتهم من أبسط الحقوق، وقد عللت ذلك بأن إبقاء اللاجئين الفلسطينيين في حالة من البؤس والفقر هو تثبيت لحقهم في العودة.

ولكن في حقيقية الأمر، فإن الموقف المعادي للفلسطينيين كان نابعاً من خوف الطائفة المسيحية في لبنان المنقسم طائفياً بموجب اتفاق ١٩٢٦ (رئاسة الجمهورية للمسيحيين الموارنة، ورئاسة مجلس النواب للمسلمين الشيعة، ورئاسة مجلس الوزراء للملسمين السنة)، من أن يؤثر الوجود الفلسطيني على التوازنات السياسية لصالح السنة، فضلاً عن ارتباط الطائفة المارونية المسيطرة على مقاليد الحكم، بالحركة الصهيونية. لذلك كانت سياسة القمع والإذلال تستهدف بالدرجة الأولى منع الفلسطيني من مجرد التفكير في المقاومة، وعوضاً عن ذلك إشغاله في البحث عن قوت يومه ومصادر رزق تفي بمتطلباته واحتياجاته الأساسية.

كانت هزيمة حزيران عام ١٩٦٧، نقطة التحول في العمل الفدائي الفلسطيني، فبعد النكسة وفي أجواء عربية ملبدة بالإحباط واليأس، صعّدت المقاومة الفلسطينية عملياتها العسسكرية ضد إسرائيل، وتجلى ذلك في معركة الكرامة في الواحد والعشرين من مارس عام ١٩٦٨، والتي جاءت كسحابة نصر فوق أرض سحقتها الهزيمة، لتكتسب بذلك زخماً وتأيداً شعبياً. وكان من تبعات ذلك أن التحق العديد من أبناء الشعب اللبناني بقواعد الثورة، على خلاف الموقف الرسمي الذي ظل رافضاً للوجود الفلسطيني المسلح في لبنان.

ومع اتساع نشاط القوات الفلسطينية في لبنان إلى جانب الدعم والمساندة الشعبية، بدأت المخيمات الفلسطينية تتحرر شيئاً فشيئاً من السطوة الأمنية، لتتحول إلى مراكز للثورة. في المقابل كان لزاماً على السلطات اللبنانية الخضوع لواقع الأمر على مضض، وذلك بسبب الضغط الشعبي والتأييد الرسمي العربي للمقاومة.

في منتصف عام ١٩٦٩، بدأت المقاومة الفلسطينية تكثف عملياتها من الجبهة اللبنانية، الأمر الذي استدعى رداً إسرائيلياً، حيث شن سلاح الجو الإسرائيلي هجوماً على مطار بيروت أدى إلى تدمير عدد من الطائرات المدنية، في رسالة واضحة إلى القيادة اللبنانية بأن ثمن إيواء القوات الفلسطينية سيكون باهظاً.

في أعقاب ذلك بدأت السلطات اللبنانية تشديد إجراءاتها في محيط المخيمات، ودخلت في صدام مسلح مع الفلسطينيين، الأمر دفع قوات من منظمة الصاعقة الفلسطينية التابعة للنظام السوري إلى الانضمام للقوات الفلسطينية ومهاجمة مواقع للجيش اللبناني على الحدود مع سوريا.

على وقع تلك الأحداث، عقد اجتماعي ثلاثي بين مصر ولبنان وفلسطين في القاهرة، وذلك في نوفمبر عام ١٩٦٩، وتم التأكيد فيما بات يعرف بـ اتفاق القاهرة، على حق الفلسطينيين في العمل والإقامة والتنقل، وإنشاء لجان محلية في المخيمات لرعاية المصالح الفلسطينية بالتعاون مع السلطة المحلية وضمن نطاق السيادة اللبنانية، وتسهيل مرور الفدائيين عبر نقاط متفق عليها، وتأمين الطرق إلى منطقة العرقوب. وتضمن الاتفاق اعترافاً بشرعية الوجود العسكري الفلسطيني في لبنان، وهو الأمر الذي أعطى المقاومة مزيداً من المكاسب على حساب السيادة اللبنانية.

استمر الحال كذلك لمدة ثلاثة أعوام، تمكنت فيها منظمة التحرير من تسليح المخيمات وتحويلها إلى قواعد عسكرية، كما شهدت تلك الفترة تحول منطقة العرقوب في جنوب البلاد إلى مركز لتجمع الثوار، وقد عرفت آنذاك باسم «فتح لاند» نسبة لنفوذ حركة فتح في المنطقة، كما جرى الحديث في ذلك الوقت عن دولة الفكهاني نسبة إلى حي صغير غرب العاصمة اللبنانية تمركزت فيه قيادات منظمة التحرير.

لم يرق ذلك للقيادة اللبنانية، فقررت في شهر مايو عام ١٩٧٣ ضرب المخيمات الفلسطينية في بيروت، في خطة مشابهة لخطة جوهر التي نفذها الجيش الأردني ضد الوجود الفلسطيني في العاصمة عمان قبل

ذلك بثلاثة أعوام. فطوقت وحدات من الجيش منطقتي صبرا وشاتيلا، وجرت اشتباكات متقطعة قبل أن يتطور الأمر إلى استخدام سلاح الجو، وضرب مكاتب منظمة التحرير في بيروت، بالإضافة إلى مخيمي ضبية وتل الزعتر.

سبقت تلك الفترة دخول إسرائيل على الخط، مستغلة الصدام المسلح المتقطع بين القوات الفلسطينية والجيش اللبناني، فنفذت عملية اغتيال جبانة طالت ثلاث قيادات في منظمة التحرير ببيروت وهم: محمد يوسف النجار عضو اللجنة المركزية في حركة فتح ورئيس اللجنة السياسية الفلسطينية في لبنان، وكمال ناصر المتحدث الرسمي باسم قيادة منظمة التحرير، وكمال عدوان عضو لجنة مركزية والمسؤول العسكري والتنظيمي للقطاع الغربي.

في أعقاب تلك الاضطرابات، أكدت القمة العربية التي عقدت في نوفمبر من نفس العام بالجزائر، على أن منظمة التحرير هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، وهو الأمر الذي رفضته كل من لبنان والأردن. كما نص البيان الختامي للقمة على حق الفلسطينين في القيام بالعمل الفدائي من جميع الأراضي العربية، غير أن لبنان تحفظ على هذا البند أيضاً.

في المرات القليلة التي حصل فيها على إجازة أثناء وجوده في العرقوب، قرر صقر أن يزور بيروت، كان ذلك في صيف عام ١٩٧٤، وهناك التقى بالصدفة في أحد الأسواق بابن خالته يوسف الأشرم، الذي كان يعمل في جهاز الـ ١٧. وكانت تلك المرة الأولى التي يقابل فيها أحداً من أقربائه في غزة، حيث كان قد مضى على غربته خمسة أعوام.

بعد أن تناولا الغداء، معاً رافق صقر ابن خالته إلى مكتب الـ ١٧ في حي الفكهاني، حيث يقيم قائد القوات الفلسطينية ياسر عرفات، وهناك تفاجأ بأبو السعيد، الرجل الذي التقى به أول مرة في معسكر منعم ببغداد.

بعد السلام الحار والسؤال عن الأحول، علم أن أبو سعيد يعمل مديراً لقسم الأرشيف في مكتب ياسر عرفات، لكنه لاحظ من حديثه أنه مرتبك ومضطرب، ولا يرغب في وجوده بمكتبه، كما أخبره بأنه يستعد للسفر إلى ألمانيا وربما لن يعود، وكأنه يشير إليه بعدم رغبته في زيارته مرة أخرى.

لاحقاً علم صقر من صديقه سليمان الحسنات الذي كان يعمل في جهاز الأمن والمعلومات ببيروت، أنه تم إعدام أبو السعيد بعد أن اكتشف الشهيد حسن سلامة بالصدفة وبواسطة المخابرات الأردنية، أنه يهودي يعمل لصالح الموساد الإسرائيلي.

تساءل صقر كيف يمكن لجاسوس إسرائيلي أن يتسلل ويتدرج حتى يصل إلى مكتب ياسر عرفات، ألهذا الحد المنظمة مخترقة، ولكن الإجابة كانت حاضرة بطبيعة الحال، فمنظمة التحرير الفلسطينية منذ نشأتها عام ١٩٦٥، لم تكن تضع اعتبارات أو شروط لاختيار الفدائيين أو قبول المنتسبين لها، لم تكن هناك أي معايير عقائدية أو تربوية أو أخلاقية، فقد كانت ترحب بكل من هو قادر على حمل السلاح، لذلك كان من السهل على إسرائيل اختراقها، وقد فعلت ونجحت في الكثير من المناسبات، وقد دفعت المنظمة ثمن ذلك خيرة قياداتها وشبابها وفدائييها.

مع اتساع نفوذ منظمة التحرير على الأرض، وذلك بموجب قرارات

عربية متتالية أكدت على مشروعية العمل العسكري الفلسطيني ضد إسرائيل انطلاقا من الأراضي العربية، بالإضافة إلى الالتفاف الشعبي حول المقاومة، وقفت الحكومة والجيش اللبناني عاجزين عن التعامل مع الوضع الجديد المثبت والمدعوم عربياً على المستويين الرسمي والشعبي.

من هنا بدأ تشكيل المليشيات اللبنانية المسلحة لتكون بديلاً أو رديفاً للجيش الذي كان يفتقر للتسليح والتدريب. وقد تم ذلك بإشراف من رئيس الجمهورية آنذاك سليمان فرنجية، بالإضافة إلى قادة الأحزاب والكتل المسيحية. وقد تم تخصيص ميزانية لشراء الأسلحة تجاوزت قيمتها مئتي مليون دولار. هذا إلى جانب الأسلحة التي كانت ترسلها إسرائيل إلى حزب الكتائب عبر ميناء جونية، تمهيداً للانقضاض على المقاومة الفلسطينية على غرار أحداث أيلول.

في أواخر عام ١٩٧٤، بدأت المليشيات المسيحية تكثف عملياتها ضد الوجود الفلسطيني، فصدرت الأوامر لقوات الكرامة في العرقوب بالتحرك إلى شمال لبنان لحماية المخيمات الفلسطينية. توجه صقر ضمن قوات الإسناد عبر طريق حمص إلى المنطار جنوب طرطوس، حيث توجد هناك قاعدة للبحرية الفلسطينية يرأسها منذر أبو غزالة، أوكلت إليهم مهمة نقل صواريخ جراد عيار ١٢٢ و ١٣٠ عبر البحر إلى الشمال اللبناني.

وصلت المجموعة فجراً على متن زورقين تابعين للبحرية الفلسطينية إلى قرية المنية، وتم تسليم الصواريخ لقاعدة الثلاثي في مخيم البداوي. بعد ذلك تم توزيع القوات على المحاور الأساسية في مدينة طرابلس شمال لبنان، للتصدي للقوات الانعزالية من جهة، والجيش اللبناني من جهة أخرى.

استغلت فصائل منظمة التحرير في الشمال تركيز المليشيات المسيحية على المخيمات الفلسطينية في بيروت، وبدأت بشن هجمات متكررة ومكثفة على مواقع القوات الانعزالية في مدينة طرابلس ومحيطها، وقد لاقت مساندة من بعض الأحزاب والحركات التقدمية، مثل: حركة التوحيد الإسلامي، والحزب القومي السوري الاجتماعي، وقد حال وجود فصائل

المنظمة في المنطقة دون تعرض مخيم البداوي لمجازر دموية على غرار مخيمي تل الزعتر وضبية في العاصمة اللبنانية.

وكانت من أبرز المعارك في الشمال، معركة مجليّة التي تم فيها دحر القوات الانعزالية إلى مدينة زغرتا، ومعركة الكرملية نسبة إلى مدرسة الكرملية التي كانت تتحصن فيها المليشيات، فبعد سلسلة من المعارك العنيفة فرضت القوات الفلسطينية السيطرة الكاملة على كل من الكرملية ورشعين وبيت عوكر.

أيضاً هناك واقعة أخرى حدثت خلال تلك الفترة، حيث كان يفصل مخيم البداوي للاجئين الفلسطينيين عن مدينة طرابلس، حيّ يدعى جبل بعل محسن، وكان سكان الحي من الطائفة العلوية الموالية للنظام السوري، وكان زعيمهم آنذاك علي عيد، يتمتع بنفوذ كبير، لذلك كانوا يكيدون للثورة الفلسطينية ويطلقون النار على سكان المخيم بين حين وآخر، فجاءت الأوامر من قيادة فتح في الشمال، بضرورة وضع حد لتلك التجاوزات. فتوجهت قوة عسكرية ضمت صقر وعدداً من رفاقه، وقاموا بتطويق الحي وإجبار سكانه على تسليم أسلحتهم، وحين تم ذلك، أمر قائد القوة المحمولة طارق زيد، بوضع مفرزة من عناصر الكفاح المسلح الفلسطيني في محيط الحي، لحفظ الأمن وضمان عدم التعرض للفلسطينيين وحلفائهم في المنطقة.

مع ازدياد نفوذ حركة فتح والفصائل الفلسطينية الأخرى في الشمال، واشتداد الضربات على مواقع المليشيات المسيحية، تدخّل الجيش الإسرائيلي ونفذ عمليات عسكرية خاطفة استهدفت العسكرين والمدنيين الفلسطينيين في المنطقة.

في فبراير عام ١٩٧٥ قصف سلاح الجو الإسرائيلي عدة مواقع لحركة فتح في مخيم البداوي بالقنابل العنقودية، وعلى إثر ذلك القصف أصيب صقر إصابة بالغة كادت أن تفتك بأحد أطرافه، كما قُتل وجرح عدد كبير من الأطفال والنساء في المخيم.

على سرير أبيض في مستشفى المظلوم بمدينة طرابلس، فتح صقر عينيه على جموع من أبناء مخيم البداوي الذين جاؤا ليطمئنوا على صحته، حيث كان يمكث هناك مع عدد من الجرحى العسكريين. في تلك اللحظة، لم يتمالك نفسه فانخرط في نوبة بكاء كطفل صغير! فلطالما شعر بأنه وحيد غريب قد يلقى حتفه في أي لحظة وقد يدفن بعيداً عن أهله وثرى وطنه. ها هو يحظى بزيارة عابرة للحدود .. فهذا وجه أمه التي لم يراها منذ ست سنوات، وعلى يمينه أخوه الأصغر مبتسماً، وهذا الصديق وذاك القريب، جميعهم يلتفون حوله كأنهم أسرة ضمتهم غرفة واحدة.

كانت تلك الزيارة تأثيثاً لعلاقة من نوع خاص مع سكان البداوي ستتوج لاحقاً بالمصاهرة، ليصبح لصقر في المخيم أهلاً وأقرباء وإخوة أعزاء.

فخلال الفترة القصيرة التي قضاها مقاتلو حركة فتح في المخيم، استطاعوا أن يكسبوا احترام وتقدير الجميع، وذلك بسبب الأخلاق الرفيعة التي تحلو بها، فضلاً عن التضحيات التي قدموها في سبيل الزود عن سكان المخيم وحمايتهم من العصابات والمليشيات المسيحية.

فقد كان البداوي ثاني مخيم للاجئين الفلسطينيين شمال لبنان، بعد مخيم نهر البارد، أنشأته وكالة غوث وتشغيل اللاجئين (الأونروا) عام ١٩٥٥ في احدى قرى قضاء الضنية بمحافظة الشمال، وذلك بعد تكدس أعداد اللاجئين في الجنوب اللبناني في أعقاب النكبة واضطرار بعضهم للخروج بحثاً عن أماكن وبدائل أخرى، خصوصاً بعد الشعور بأن اللجوء المؤقت قد يتحول إلى وضع دائماً في ظل التخاذل العربي والتآمر المستمر على القضية الفلسطينية.

كان جل سكان المخيم من اللاجئين الذين قدموا من منطقة الجليل، وتحديدا من مناطق: عكا، الناصرة، صفد، طبريـة، وشفاعمرو، وبالتالي كان هناك تناغم اجتماعي متقدم إلى حد ما بين أبناء المخيم، على خلاف باقي المخيمات والتجمعات الفلسطينية الأخرى التي كانت عبارة عن مزيج من

أبناء مدن وقرى ومناطق مختلفة ومتباعدة جغرافياً وسلوكياً.

كان اللاجئون يؤمنون بأن وجودهم في المخيم مؤقت وإن طال بهم الزمن، لذلك كانوا يشحذون صمودهم وعزيمتهم بالتمسك بهويتهم الوطنية. ومع تشديد الخناق عليهم من قبل الحكومات اللبنانية المتعاقبة، وإخضاع معيشتهم لاعتبارات سياسية تطغى عليها المصالح الفئوية والطائفية، كانت هناك حاجة إلى التشابك والتماسك من أجل مواجهة الصعاب في شتات الغربة القسرية، لذلك وبالرغم من جميع المسببات التي كانت تدفع باتجاه اليأس والإحباط، فإن البوصلة ظلت تشير إلى فلسطين حتى في أحلك اللحظات.

ساهم هذا الأمر بدرجة كبيرة في تمكن اللاجئين من تجاوز محنة اللجوء، ومع مرور الوقت تحول مخيم البداوي إلى معسكرات تدريب ومراكز عمل تطوعي لخدمة القضية الفلسطينية. فكان نتاج ذلك انتشار عدد من القواعد العسكرية الفلسطينية في محيط المخيم. وكان معظم الثوار الفلسطينيين في تلك القواعد من غزة وبئر السبع وكان صقر واحداً منهم، حيث لم يكن لديهم عائلات أو أقرباء في لبنان، لذلك قرر وجهاء المخيم أن يقوموا بتبني هؤلاء الثوار ومعاملتهم معاملة الأبناء.

وفي منتصف السبيعنيات أخذت العلاقة منحى آخر، وشهدت تلك الفترة حدوث مصاهرة بين الثوار وعائلات من المخيم، على خلاف عائلات في مخيمات أخرى كانت ترفض تزويج بناتها للثوار على اعتبار أنهم غرباء.

في تلك الأثناء، كان صقر يحظى بمعاملة خاصة من أم تبنته في مخيم البداوي تُدعى فاطمة خلايلي أم محمد، وهي بالأصل من سكان قرية الجش بالجليل الأعلى، التي هُجر سكانها أثناء النكبة عام ١٩٤٨، واستقر بهم المقام في لبنان.

في الأول من يناير عام ١٩٧٦، ذهب صقر رفقة أمه، إلى منزل الحاج صالح عبيد، والذي كان عضوا في جيش التحرير الفلسطيني، وتقدم لخطبة ابنته أمون، التي كانت تبلغ من العمر آنذاك ١٩ عاماً، بينما كان هو يكبرها

بعشر سنوات.

شعر الحاج صالح باطمئنان تجاه صقر، وما عزز من فرص قبوله، وجوده بمعية الحاجة أم محمد التي كانت تحظى بمكانة عالية وسمعة رفيعة، وتعتبر واحدة من وجوه الخير في المخيم.

تمت الخطوبة في ذلك اليوم وقرأ الطرفان الفاتحة على نية القبول، قبل أن تتوج تلك الخطوة بالزواج في الشهر السابع من نفس العام، لتبدأ فيما بعد فصول جديدة من السفر والترحال، وتكون آمون عوناً وسنداً وشريكة حياة وكفاح ونضال.

بعد أقل من شهرين على القصف الإسرائيلي للمواقع الفلسطينية شمال لبنان، كانت الشرارة الأولى للحرب الأهلية قد بدأت تشتعل في بيروت. فخلال أيام قليلة تسارعت الأحداث وأخذت منحى آخر غير مسبوق، ابتداء من محاولة اغتيال رئيس حزب الكتائب اللبناني بيار الجميل، مروراً بحادثة البوسطة في منطقة عين الرمانة، التي قتلت فيها المليشيات المسيحية ٢٧ فلسطينياً، وليس انتهاء باتساع نطاق الاشتباكات في كافة أرجاء بيروت.

على وقع تلك الاشتباكات شرعت الأطراف المتقاتلة في التموضع ضمن محاور دينية وسياسية. بدأت الحرب بين ثلاثة أطراف أساسية هي: الجبهة اللبنانية بذراعها العسكري المتمثل بالقوات اللبنانية برئاسة بشير الجميل إلى جانب الجيش اللبناني، والحركة الوطنية اللبنانية بقيادة كمال جنبلاط، ومنظمة التحرير الفلسطينية بجميع فصائلها بقيادة ياسر عرفات، قبل أن تنضم لاحقاً إلى جبهات القتال كل من سوريا وإسرائيل كداعمين للمليشيات المسيحية.

استمرت المعارك والاشتباكات بصورة متقطعة منذ منتصف أبريل حتى نهاية عام ١٩٧٥، ولكن في السادس من ديسمبر من نفس العام، شهدت فصول الحرب يوماً داميا عرف فيما بعد بالسبت الأسود، حيث عُثر على جثث أربعة أعضاء من حزب الكتائب في سيارة بالقرب من محطة توليد كهرباء في بيروت. وكان من ضمن القتلى ابن القيادي في الحزب جوزيف سعادة، فتم اتهام الحركة الوطنية اللبنانية التي يهيمن عليها اليساريون المسلمون والفلسطينيون بالمسؤولية عن العملية. فاندفغت المليشيات بحالة من الغضب وهاجمت المسلمين في جميع أنحاء بيروت الشرقية التي يسيطر عليها المسيحيون، وأطلقت النار بشكل عشوائي على الحشود، كما أقامت نقاط تفتيش على الطرق الرئيسية، وتم اعتراض السيارات والمارة، وأمروا بإبراز بطاقات الهوية، وقتلوا آنذاك أي فلسطيني يصادفهم (لم يكن اللاجئون الفلسطينيون يملكون بطاقات هوية) وكذلك المسلمين اللبنانيين (تشير بطاقات الهوية اللبنانية إلى الانتماء الديني). قتل آنذاك أكثر من ثلاثمئة مسلم فيما عرف كأول تطهير عرقي في الحرب الأهلية اللبنانية،

لتدخل لبنان بعد ذلك في حلقة مفرغة من الانتقام والانتقام المضاد. لاحقاً أصدرت قيادة الكتائب بياناً زعمت فيه أن الرد كان يفترض أن يقتصر على أخذ الرهائن، لكنه تصاعد إلى مذبحة بسبب «الهستيريا» والعناصر الذين لن يستمعوا إلى أوامر رؤسائهم.

في مطلع عام ١٩٧٦ وصلت إلى ميناء طرابلس باخرة قادمة من مصر، تقل قوات عين جالوت التابعة لجيش التحرير الفلسطيني، وذلك من أجل مساندة فصائل منظمة التحرير في حربها مع المليشيات المسيحية.

كان من ضمن أفراد القوات الوافدة، الأخ الأكبر لصقر «محمود» والذي غادر غزة عام ١٩٦٧ والتحق بجيش التحرير في مصر بنفس العام.

تعرّف على محمود شاب من آل أبو سويرح، وهو مقاتل فلسطيني من قطاع غزة يقيم في مخيم البداوي، فقرر أن يعد مفاجأة لصديقه صقر، فاصطحبه إلى طرابس وقال له إن هدية في انتظاره. ظن صقر أن للهدية علاقة بالخطوبة، حيث لم يمض على خطوبته آنذاك سوى أيام قليلة. وصل الاثنان إلى معسكر على أطراف المدينة يضم عدداً كبيراً من المقاتلين الفلسطينيين. وبينما كان الشاب يمهد الطريق للقاء عاصف، صاح صقر بأعلى صوته: محمود .. محمود، حيث كان قد لمح أخيه بين عشرات المقاتلين، نظراً لطوله الفارع وبشرته السمراء. وما هي إلا لحظات حتى التحم الشقيقان في عناق طويل لم يقطعه سوى توافد المهنئين من شركاء الكفاح والنضال.

لم يدم اللقاء طويلاً، حيث كان من المقرر أن يتوجه محمود ضمن القوات إلى جبل لبنان في اليوم التالي، ليمكث هناك في كتيبة بسوق الغرب، وهو ما حال دون تحقيق رغبة صقر في اصطحابه إلى مخيم البداوي ليتعرف على أهل خطيبته. لكن في وقت لاحق سيتمكن صقر من زيارته في بيروت الغربية، قبل أن يعود أدراجه إلى القاهرة.

في الأثناء لم تهدأ المعارك والاشتباكات في العاصمة بيروت، ففي الثامن عشر من يناير اقتحمت المليشيات المسيحية منطقة الكرنتينا ذات الأغلبية

المسلمة، وقتلت أكثر من ألف ثلاثمئة مسلم من سكان المنطقة. وبعد ذلك بيومين هاجمت القوات الفلسطينية بلدة الدامور المسيحية وقتل المئات من سكانها.

ساهمت تلك العمليات المتبادلة في انقسام العاصمة إلى بيروت الشرقية حيث تحصّن المسيحيون، وبيروت الغربية الواقعة تحت نفوذ الأكثرية المسلمة والتي تضم لبنانيين وفلسطينيين وسوريين، وهو الأمر الذي سهل لاحقاً قدرة المليشيات المسيحية على تعقب ومحاصرة أماكن تواجد المسلمين.

في شهر مايو من نفس العام، وبعدما عجزت المليشيات من اقتحام حصون المخيمات الفلسطينية، طلب الرئيس اللبناني آنذاك سليمان فرنجية، من سوريا التدخل بذريعة حماية خطوط الإمداد الأساسية بين لبنان وسوريا. وبالفعل استجابت القوات السورية ودخلت لبنان تحت اسم «قوات الردع»، واحتلت مدينة طرابلس وفرضت منعاً للتجول. وقد ساهم التدخل السوري في سقوط مخيم تل الزعتر الذي ظل محاصراً لمدة ٥٢ يوماً. ففي الثاني عشر من أغسطس اقتحمت المليشيات المسيحية المخيم المنهك، وارتكبت مجزرة بحق المدنيين والعسكريين، عرفت باسم مذبحة تل الزعتر، حيث قتل الآلاف من الأشخاص، من بينهم أطفال ونساء وشيوخ.

وكانت أكثر المشاهد قسوة في تلك المجزرة قيام المليشيات بفتح النار على السكان العزل أثناء خروجهم من المخيم بعد التعهد بعدم المساس بهم، وقد قتلوا في ذلك اليوم أكثر من ثلاثمئة شخص، فضلاً عن اعتقال العشرات واقتيادهم إلى جهات غير معلومة، قبل تنفيذ أحكام إعدام بحقهم.

تعتبر تلك الجريمة واحدة من أطول المعارك التي شهدتها الحرب الأهلية اللبنانية، وأكثرها وحشية ودموية على الإطلاق.

بعد مجزرة تل الزعتر بدأت نيران الحرب تخبو شيئاً فشيئاً، وبدأ الهدوء يعود تدريجياً إلى العاصمة بيروت، باستثناء منطقة العرقوب في الجنوب، حيث تحصنت فصائل منظمة التحرير الفلسطينية. كما تم سحب معظم

القوات السورية مع الإبقاء على أربعين ألف جندي من قوات الردع في لبنان، بموجب قرار جامعة الدول العربية، تحسباً لاندلاع أي اشتباكات جديدة، على اعتبار أن دورها هو فض الاشتباك. بينما في حقيقة الأمر كانت تلك القوات طرفاً أساسياً في المعارك، وقد ساهمت بشكل كبير في تغيير موازين القوى على الساحة اللبنانية، وتغليب الكفة لصالح الكتائب المسيحية على حساب الحركة الوطنية وفصائل منظمة التحرير.

في نوفمبر عام ١٩٧٦، وبعد زواجه بأربعة أشهر، جاءت الأوامر لصقر بالتوجه إلى مصر ضمن مجموعة مقاتلة، للالتحاق بدورة عسكرية سيتم خلالها التدرب على استخدام صواريخ مولتيكا المضادة للدروع روسية الصنع. كانت المهمة سرية وقد تم التعميم على أفراد المجموعة بعدم البوح بأي تفاصيل بشأنها حتى إلى أقرب الناس إليهم. وبالفعل التزم صقر بالتعليمات وغادر المخيم فجر اليوم التالي، دون أن يخبر زوجته التي كان حاملاً في شهرها الثالث.

استفاقت أمون في ذلك اليوم دون أن تجد زوجها إلى جانبها، فانتبها خوف شديد، حيث شهدت تلك الفترة قيام فصائل فلسطينية موالية للنظام السوري، بخطف واعتقال عناصر من حركة فتح في المخيم. فتوجهت على الفور إلى بيت أهلها لتخبرهم بما حدث، وعندما حاولت الاستفسار من رفقاء صقر في القاعدة العسكرية حيث كان يخدم، جاء الرد بأنه بخير ولا داعي للقلق.

في أعقاب ذلك، بدأ بعض الجيران يتحدثوا عن هروب صقر تاركاً زوجته الحامل وراءه، وكانوا كلما رأوا أمون، يتهامسون ويتحدثون عن خيبتها، محملين المسؤولية لأهلها الذين وافقو على تزوجيها من رجل غريب لا يُعرف أصله وفصله. غير أنها كانت قوية وثابتة وعلى يقين تام، بأن زوجها لم يغدر بها، وأنه لا بد من أمر طارئ قد استدعي غيابه، وأنه سيعود حين تسمح له الظروف بذلك، وإن طالت فترة الانتظار.

استمرت الدورة العسكرية ثلاثة أشهر، وفي إحدى الإجازات التي قضاها صقر في القاهرة، زار بيت أخيه محمود الذي كان غائباً في مهمة عسكرية، وهناك أشارت عليه زوجة أخيه أن ينسحب من الدورة ويستغل فترة وجوده بمصر المحاذية لغزة، لزيارة أهله في القطاع والبقاء معهم، بدلاً من سنوات الغربة والضياع في شتات الثورة. فرفض صقر ذلك وقال إنه اختار هذا الطريق وسيكمله حتى النهاية، وإن فلسطين لن تسترد إلا بسواعد رجالها وتضحيات أبنائها، فضلاً عن أن لديه زوجة تنتظره في لبنان.

في صباح الأول من مارس، وبينما كانت أمون تغزل في باحة المنزل كنزة من الصوف لمولودها القادم، طُرق الباب ثلاث طرقات قوية، لم تمهل نفسها فرصة الدخول في لعبة الاحتمالات التي اعتادت عليها في أسابيع حملها الأخيرة، فهذه طرقات صقر. لم تدر كيف في حركة واحدة أصبحت عند عتبة الباب وهي في شهرها الثامن. نعم إنه هو، بدا أكثر نحولاً، وأشد سمرة، لم تسأله أين كنت، وماذا فعلت، فالدموع التي بللت ياقة بذلته العسكرية كانت كفيلة بإيصال ما انتابها من خوف وقلق أثناء غيابه.

لم يمض شهر واحد على عودته، حتى بشّر بمولوده الأول، كان صبياً، سماه زياد، واكتملت البشرى حين وصله إشعار من حركة فتح، بحصوله على رتبة مساعد ابتداء من الأول من مارس عام ١٩٧٧. كانت تلك المرة الأولى في تاريخ الثورة الفلسطينية التي يتم فيها منح رتب عسكرية للمقاتلين. في تلك الأثناء أيضاً تم تعينه مدرباً في القوة المحمولة بمعسكر أشبال البداوي، واستمر في موقعه لمدة عامين.

في عام ١٩٧٩، بدأ صقر يتجه إلى العمل التنظيمي، وذلك بعد انتقاله الى مؤسسة الأشبال والفتوة في العاصمة بيروت، حيث عمل ضابط إدارة في المؤسسة التي كانت رافداً أساسياً للثورة الفلسطينية. وكان من أبرز أهدافها: رفد الثورة بقطاع هام من قطاعات الشعب الفلسطيني، وتعزيز الارتباط العضوي بالأرض والوطن عند النشء الذي لم يعش في فلسطين، وربط الأشبال والفتوة والزهرات بالثورة وتكريس العضوية وتعويدهم

الولاء الإيجابي للثورة، بالإضافة إلى الإعداد البدني والعسكري والسياسي ليصبح الشبل قادراً على الدفاع عن الشعب والثورة.

في نفس العام خضع صقر لدورة توجيه سياسي في مدرسة الكوادر للتثقيف السياسي ببيروت، وتخرج ضمن دورة الشهيد أبو علي إياد، بشهادة مفوض سياسي إلى كتيبة.

خلال تلك الفترة أيضاً، تم ترشيحه لعمل دورة عسكرية في الأردن، للتدرب على صواريخ تاو الأمريكية المضادة للدروع والدبابات، حيث كانت أحدث الصواريخ الأمريكية في ذلك الوقت. دامت الدورة عشرين يوماً، وبعدها تم تشكيل «وحدة صواريخ تاو» بأمر من خليل الوزير أبو جهاد، وكان صقر عضواً في هذه الوحدة.

بعد ذلك تم توزيع عناصر وحدة الصواريخ على القطاعات العسكرية المختلفة. فتوجه صقر مجدداً إلى الشمال، وعين مسؤولاً بمعسكر الأشبال في مخيم نهر البارد.

في مطلع الثمانينيات لم تختلف الأوضاع كثيراً في لبنان عما كانت عليه في السنوات السابقة، بل كانت امتداداً أقل حدة وشراسة لفصول الحرب الأهلية التي قسمت الأراضي اللبنانية إلى مناطق نفوذ عسكرية موزعة بين قوات الردع السورية، وفصائل منظمة التحرير الفلسطينية، والمليشيات المسيحية المتحالفة مع القوات الإسرائيلية التي اجتاحت الجنوب اللبناني عام ١٩٧٨.

وبالرغم من انسحاب إسرائيل لاحقاً من الجنوب، فإن التواجد العسكري لمنظمة التحرير في المنطقة، ظل مصدر قلق وخطر على حدودها الشمالية، لذلك شهدت تلك الفترة شن عدة هجمات استهدفت القواعد العسكرية الفلسطينية، وهو الأمر الذي قوبل بهجوم مضاد. استمر الوضع كذلك حتى يوليو عام ١٩٨١، حيث وقع الطرفان على اتفاق لوقف إطلاق النار بإشراف مبعوث الولايات المتحدة إلى المنطقة فيليب حبيب.

في تلك الأثناء برزت مبادرة سلام سعودية، ضمت عدة بنود كان أبرزها: التأكيد على حق دول المنطقة ـ بما فيها إسرائيل ـ في العيش بسلام، وهو الأمر الذي رفضته منظمة التحرير الفلسطينية والعراق وسوريا، فيما لم تعلن الولايات المتحدة موقفها، بينما أصدرت وزارة الخارجية الإسرائيلية بياناً رفضت فيه ما جاء في المبادرة. وقد أعطى رفض المساعي السعودية خصوصاً من الجانب الإسرائيلي، مؤشراً على أن إسرائيل تعتزم القيام بعملية استئصالية من أجل وضع حد للوجود العسكري الفلسطيني في لبنان.

في خضم تلك الأحداث، وبينما كانت المنطقة تترقب حرباً جديدة ستشنها إسرائيل لاحقاً على العاصمة بيروت، كان صقر ينتظر ولادتي في مستشفى المظلوم بمدينة طرابلس. على خلاف الظرف والمناخ الذي جئت فيه إلى الحياة، لم تكن ولادتي عسيرة، فقد أبصرت النور في وقت مبكر من صباح السابع والعشرين من أكتوبر عام ١٩٨١. لأكون الابن الثاني لصقر والولد الرابع.

تقول أمي، إن شعوراً بالخوف على حياتي لازمها طيلة فترة حملها بي، خصوصاً في الأسابيع الأخيرة، حيث كانت أيضاً الأيام حبلى بالمذابح والمجازر المؤجلة، فمن خلال استماعها لأحاديث أبي ورفقائه حول تطورات ومآلات الأحداث، كانت تدرك بأن المنطقة مقبلة على شيء ما.

شهد مطلع عام ١٩٨٢، تصاعداً في وتيرة العمليات العسكرية التي شنتها القوات الفلسطينية ضد أهداف إسرائيلية انطلاقاً من الجنوب اللبناني. استمر الوضع كذلك حتى الثالث من يونيو من نفس العام، حين حاولت منظمة أبو نضال (صبري البنا) المنشقة عن منظمة التحرير الفلسطينية، اغتيال السفير الإسرائيلي لدى بريطانيا شلومو أرجوف.

استخدمت إسرائيل تلك العملية ذريعة لشن حرب واسعة على منظمة التحرير في لبنان، بل قيل آنذاك إن العملية تزامنت بشكل مثير للريبة مع اعتزام الحكومة الإسرائيلية تنفيذ عملية استئصالية لضرب آخر معاقل ياسر عرفات بعد طرده من الأردن.

بدأت الحرب بقصف جوي عنيف استهدف المناطق الجنوبية في الخامس من يونيو، وفي اليوم التالي تجاوزت القوات الإسرائيلية المناطق التي كانت تشغلها قوات حفظ السلام الدولية التابعة للأمم المتحدة.

كان من المقرر أن تكون العملية محدودة، وألا تتجاوز القوات الإسرائيلية حدود ثلاثين كيلومترا، وذلك حسب الخطابات الرسمية بين حكومة مناحيم بيغين والإدارة الأمريكية. ولكن، حصول إسرائيل على ضوء أخضر ودعم كامل من الرئيس الأمريكي آنذاك رونالد ريغان، بالإضافة إلى الصمت العربي المعتاد، دفعها إلى تعديل أهداف العملية، لتصبح أهدافاً استراتيجية تتمثل في تدمير منظمة التحرير الفلسطينية، وتمكين الحكومة اللبنانية، تمهيداً لتوقيع اتفاقية سلام معها تضمن أمن المستوطنات والحدود الشمالية، على غرار اتفاقية كامبد ديفيد مع الرئيس المصري الراحل أنور السادات.

قاد العمليات الإسرائيلية وزير الدفاع في ذلك الوقت أرئيل شارون، وتمكن

في التاسع من يونيو من الوصول إلى مشارف العاصمة بيروت، لتبسط قواته نفوذها وتفرض سيطرتها على نحو ثلث الأراضي اللبنانية.

في الحادي عشر من يونيو احتلت القوات الإسرائيلية بيروت الشرقية، حيث لم تلق هناك مقاومة، بل حليفاً من القوات اللبنانية، وبعد يومين فرضت حصاراً على بيروت الغربية حيث كان يتحصن نحو ١٣ ألف مقاتل فلسطيني.

استمر الحصار المصحوب بقصف جوي وبحري وبري، لأكثر من شهرين، وكان العنوان الأبرز خلال تلك الفترة، قرار الصمود والمواجهة الذي اتخذته منظمة التحرير الفلسطينية، حيث سطر المقاتلون الفلسطينيون وحلفاؤهم اللبنانيون، ملحمة أسطورية في التصدي والدفاع، حالت دون تمكن القوات الإسرائيلية من اقتحام حصونهم أو التقدم شبراً واحداً، بالرغم من استخدام أعتى أنواع الأسلحة المحرمة منها والمباحة. وربما يلخص تلك الملحمة الشاعر الفلسطيني الراحل محمود درويش في رائعته مديح الظل العالي حين قال: «والموت يأتينا بكل سلاحه الجوي والبري، ألف قذيفة أخرى ولا يتقدم الأعداء شبراً واحداً».

بعد فشل القوات الإسرائيلية في اقتحام حصون منظمة التحرير، اضطرت إسرائيل مرغمة للموافقة على وقف إطلاق النار في الثاني عشر من أغسطس، بواسطة المبعوث الأميركي فيليب حبيب. وبعد أسبوع على وقف إطلاق النار، توصل الطرفان إلى اتفاق يقضي بخروج القوات الفلسطينية من بيروت مقابل ضمانات أمريكية ودولية بعدم التعرض لهم أو المساس بعائلاتهم.

وبالفعل، بدأت القوات الفلسطينية بالخروج من بيروت في الواحد والعشرين من أغسطس عام ١٩٨٢، وهو تاريخ لا يمكن أن يسقط من الذاكرة الفلسطينية، حيث خرج اللبنانيون والفلسطينيون إلى شوارع العاصمة في ذلك اليوم لوداع نحو ١١ ألف مقاتل في مشهد تراجيدي، امتزجت فيه الدموع بالزغاريد.

كانت الوجهة مناف جديدة لاحدود لها مع الأراضي الفلسطينية المحتلة، كان الخوف من المجهول يخيم على وجوه المقاتلين، فها هي المنظمة تخسر ميدانها الأخير الذي يمكن لها الانطلاق منه لضرب أهداف إسرائيلية، وذلك بعد خسارتها ميدانها الأول في الأردن.

أما الآن فما الذي يمكن أن تفعله في اليمن وتونس والجزائر.. هل انتهى المشروع الوطني؟ هل فقدت المنظمة بوصلتها؟ سؤال ظل حائراً، لكنه لم يكن كذلك بالنسبة لياسر عرفات الذي أجاب بتلقائية بديعة وهو يهم بالتوجه إلى اليونان: «سأعود إلى فلسطين».

مع خروج القوات الفلسطينية من بيروت وذهابها إلى شتات جديد، ذهبت أيضاً الضمانات الدولية أدراج الرياح، فبعد أقل من شهر، ارتكبت المليشيات المسيحية مجزرة جديدة بحق المدنيين الفلسطينيين في مخيمي صبرا وشاتيلا.

حيث تم قتل ما يقرب من ثلاثة آلاف مدني على يد القوات اللبنانية تحت غطاء إسرائيلي، بحجة البحث عن مقاتلين فلسطينيين. لكن، في حقيقة الأمر كانت العملية رداً على اغتيال قائد القوات اللبنانية بشير الجميل، الذي سعت إسرائيل إلى تنصيبه رئيساً للبنان ضمن صفقة بين الطرفين لتطبيع العلاقات وتثبيت حالة اللاحرب.

لم يثن مقتل بشير على يد حبيب الشرتوني، أخيه أمين الجميل الذي أصبح رئيساً للبنان بضغط إسرائيلي، عن استكمال مسار العمالة والخيانة. ففي نهاية عام ١٩٨٢ دخلت الحكومة اللبنانية في محادثات مع إسرائيل برعاية الولايات المتحدة، وتوصل الطرفان فيما عرف باتفاق ١٧ أيار أو «اتفاق جلاء القوات الإسرائيلية»، إلى إنهاء حالة الحرب، وانسحاب الجيش الإسرائيلي شريطة أن تقوم سوريا بسحب قواتها، وكذلك منظمة التحرير الفلسطينية التي تمركزت في الجنوب.

لم تنسحب إسرائيل كما وعدت، وظل الاتفاق حبراً على ورق، وبقي لبنان مرتعا للمليشيات، وساحة لقوات متعددة الجنسيات. فبعد انتهاء الحرب، ظل أكثر من ثلاثين ألف جندي إسرائيلي في الجنوب، ونحو أربعين ألف جندي سوري في الشمال، وعشرة آلاف مقاتل فلسطيني بين الشمال والجنوب، ومثلهم من قوات حفظ السلام الدولية التابعة للأمم المتحدة.

لم يرق وجود منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان للرئيس السوري حافظ الأسد، الذي كان يسعى إلى مصادرة قرارها السياسي والعسكري، وقد كان ذلك سبباً في صراع بين الطرفين استمر لعقود.

فحينما حضر حافظ الأسد القمة العربية في مدينة فاس المغربية في السادس من سبتمبر عام ١٩٨٢، وهي أول قمة بعد انتهاء حرب لبنان، لم يكن ضمن الزعماء الذين استقبلوا ياسر عرفات، وعندما غادر القمة اصطحب معه على متن طائرته الخاصة، عدداً من القيادات الفلسطينية التي اتهمت في وقت سابق عرفات بالتفرد بالقرار الفلسطيني، لتشكل ما عرف بجبهة الرفض، وكان من ضمن هؤلاء القادة: العقيد أبو موسى، وأبو خالد العملة.

بدأت الجبهة في مطلع عام ١٩٨٣، بالتحريض على قيادات فتح، وسعت بدعم من النظامين السوري والعراقي، إلى مصادرة التمثيل الفلسطيني، وطرحت نفسها بديلاً وطنياً بعد اتهام الحركة بالعمالة والقبول بتقديم تنازلات لإسرائيل.

وكان الانشقاق قد بدأ فعلياً داخل المنظمة عام ١٩٧٤، عندما أقر المجلس الوطني الفلسطيني برنامج النقاط العشر الذي يدعو إلى إنشاء سلطة وطنية على أي قطعة محررة من الأراضي المحتلة. حيث أبدت فصائل مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين رفضها للقرار، وشكلت مع فصائل أخرى ما عرف بـ «جبهة القوى الفلسطينية الرافضة للحلول الاستسلامية». ولاحقاً بعد توقيع السادات على اتفاقية كامبد ديفيد للسلام مع إسرائيل، انضمت تلك الفصائل إلى الأنظمة العربية الرافضة للاتفاقية (سوريا، العراق، ليبيا) لتشكل معاً جبهة الصمود والمواجهة.

نجحت الجبهة في السيطرة على عدد من الكتائب والمنظمات الفلسطينية المتواجدة في شمال لبنان، ما دفع ياسر عرفات إلى إرسال خليل الوزير أبو جهاد إلى القيادة السورية لحل الأزمة، فكان الرد واضحاً على لسان عبد الحليم خدام الذي كان مسؤولاً آنذاك عن الملف اللبناني: «لا حل دون الانصياع للإرادة السورية».

على إثر ذلك عاد ياسر عرفات متنكراً إلى مدينة طرابلس، لفرض سيطرته ووضع حد للمنشقين، واستقر في مخيم البداوي وتحديداً في بنايات أبو نعيم حيث مكاتب الإعلام التابعة لمنظمة التحرير.

فور علمهم بوصول عرفات، خرج أبناء المخيم لاستقباله، والترحيب به، وتأكيد وقوفهم معه ضد جبهة الرفض التي كانت قد عاثت فساداً خلال تلك الفترة.

وكان من جملة ما فعله المنشقون آنذاك، اعتقال عدد من عناصر حركة فتح في المخيم، وقيام ضابط أمن في الجبهة العربية بتعذيب أحد العناصر باستخدام مكواة كهربائية. على إثر تلك الحادثة ضربت قوات الكرامة مواقع جبهة الرفض في الشمال، وتم حجز عدد كبير من عناصر الجبهة بمكتب الأمن والمعلومات في مخيم البداوي.

بعد تلك العملية، أمر ياسر عرفات بتشكيل قوة مشتركة في الشمال من جميع الفصائل الفلسطينية بقيادة عسكرية لجيش التحرير الفلسطيني في منطقة الشمال، وكان أبي ضابط إدارة هذه القوات المشتركة.

شهدت تلك الفترة أيضاً هجوم القوات السورية بقيادة سليمان العيسى، على مواقع فتح في مخيم نهر البارد، وبعد معارك عنيفة، وسقوط عدد كبير من المدنيين في المخيم، اضطرت فتح إلى الانسحاب والتمركز في مخيم البداوي المجاور.

ونظراً لأن النية كانت تصفقية قادة منظمة التحرير وإخراج القوات الفلسطينية من الشمال اللبناني، لاحقت القوات السورية عرفات وشنت هجوماً عنيفاً على المخيم، شهد تطويقاً كاملاً لمدينة طرابلس.

في تلك الأثناء كان أبي في احدى القواعد العسكرية في جبل تربل المطل على المخيم، وهناك حضر ياسر عرفات ومعه عدد من قيادات المنظمة، وأخبر المقاتلين بأن محادثات تجري مع المبعوث الأمريكي فيليب حبيب، لإزالة كل قواعد الثورة الفلسطينية جنوب خط بيروت دمشق.

ثم عقد لقاء آخر في قاعدة الـ ١٧ بأحراش الزيتون مقابل منطقة العيرونية،

حضره عدد كبير من قيادات المنطقة وكوادر الحركة. لاحظ أبي أن لهجة ياسر عرفات باتت أقل حدة وحماسة في حديثه عن المعركة التي تخوضها الحركة ضد المنشقين. ما يشير إلى أن شيئاً ما يحاك في الخفاء لإنهاء الوجود الفلسطيني العسكري في لبنان. وما عزز هذا الشعور لديه، صمت القائد عبد المعطي السبعاوي، حينما طلب أبي شراء صواريخ تاو الأمريكية لضرب مواقع المنشقين في ذروة المعارك.

في حديثه لاحقاً عن معركة المنشقين، قال أبي بمرارة: «في حرب أيلول صمدنا في مخيم الوحدات ١٣ يوماً تحت أعتى الأسلحة العسكرية التي استخدمها الجيش الأردني ضدنا ولم نخرج من الأردن، لكننا لم نصمد في طرابلس أكثر من يومين.. ربما كانت هناك معرفة مسبقة لدى كوادر فتح بأن السفن قادمة إلى ميناء طرابلس لتقل المقاتلين الفلسطينيين وعائلاتهم إلى مناف جديدة».

وهذا ما تم بالفعل، فبعد حصول ياسر عرفات على ضمانات عربية وأمريكية بعدم التعرض له أثناء خروجه من طرابلس، غادر في العشرين من نوفمبر عام ١٩٨٣، رفقة نحو خمسة آلاف مقاتل وعشرات الجرحى على متن سفينة يونانية، باتجاه اليمن.

في ذلك اليوم كنت أبلغ من العمر عامين وثلاثة وعشرين يوماً، وكنت من الأطفال الذين حظوا بمداعبة خاصة من ياسر عرفات على متن السفينة، حيث كان أبي واحداً من المقاتلين الذين رافقوا القائد العام في تلك الرحلة التي عرفت بالخروج الثاني للقوات الفلسطينية من لبنان بعد الاجتياح الإسرائيلي.

كانت رحلة أخرى إلى المجهول، وسط وداع يشوبه الخوف والحذر. لم يكن خروجاً بطعم النصر كما حدث في بيروت، كانت علامات الخيبة والهزيمة واضحة على وجوه المقاتلين. لكن مرارة أبي كانت مضاعفة، ففي تلك الأثناء وصله خبر وفاة جدي علي وعمتي حمدة في قطاع غزة، وذلك بواسطة أحد عناصر قوات عين جالوت الذي كان على صلة بعمي

محمود في مصر.

كان قد مر آنذاك ١٤ عاماً على خروج أبي سراً من غزة. فيما بعد علم كم تملك الحزن قلب أبيه، فليس سهلاً أن تفقد اثنين من أبنائك في غياهب الثورة حتى وإن كنت من أشد المؤمنين بها.

كان يتملكه شعور بالفخر أمام رفقائه وجيرانه حين يشار إليه بالبنان هو ذا والد محمود وأحمد الذين خرجا تلبية لنداء الوطن، لكن حين يختلي بنفسه يعتصره الألم ويذوب كشمعة شوقاً وحنيناً.

كان أبي قد منحني اسم جدي قبل وفاته، لذلك كان كلما أراد أن يواسي نفسه، يضمني بقوة إلى صدره ويبكي بصمت، لا أذكر أني شاهدت يوماً دموع أبي، كان حريصاً على ألا يفعل ذلك أمامنا، لذلك كان مصدر قوة بالنسبة لنا. لكنه، فعل ذلك مراراً بعد أن تجاوز عقده السابع. ربما هي سنة الحياة وحكمة الله في عباده بأن يعود الرجال أطفالاً مهما بلغوا من البأس والقوة مداداً.

وصلت القوات الفلسطينية إلى مدينة صنعاء، واستقر أبي في منطقة الحصبة، حيث استأجرت منظمة التحرير مباني سكنية وقامت بتجهيزها بجميع المستلزمات لتكون مأوى جديداً في منفى جديد.

هناك في صنعاء بعيداً عن حدود فلسطين ورائحتها الذكية، دخل المقاتلون في صراع مع النفس، وبدأت تطرح أسئلة كبرى بشأن مستقبل المشروع الوطني، والحال الذي آلت إليه الثورة الفلسطينية بعد عقود من الكفاح والنضال.

فلم يكن ذلك مصير الثورة الفيتنامية التي تمكنت من الانتصار وتحقيق أهدافها خلال ١٩ عاماً من الكفاح ضد الاحتلال الأمريكي ومحاولة تقسيم البلاد، وكذلك الثورة الكوبية، وثورة التحرير الجزائرية التي تمكنت من طرد المستعمر الفرنسي في ثماني سنوات، لتعلن استقلالها وتأسيس جمهوريتها الحديثة، وكذلك سائر حركات التحرر في العالم.

انقسم الثوار إلى قسمين: فريق يحاول التأقلم والتعايش مع الوضع الجديد، وآخر بدأ بالتمرد على الواقع مطالباً بالعودة إلى الساحة اللبنانية.

في تلك الأثناء، كان اسم أبي يتردد كثيراً باعتباره قائد العصيان الجديد داخل منظمة التحرير الفلسطينية في اليمن. وكان بيتنا في صنعاء مركز تجمع للمقاتلين الرافضين للمناخ التجيشي العبثي، وفيه أخذت العديد من القرارات، منها: رفض القوات الالتحاق بمعسكر صبرا الذي كان يرأسه الشهيد أحمد مفرج (أبو حميد)، ورفض وضع شعار (النسر) الخاص بجيش التحرير الفلسطيني، بدلاً من شعار حركة فتح (العاصفة).

على إثر ذلك أرسلت قيادة الساحة اليمنية في صنعاء، برقية إلى ياسر عرفات المتواجد آنذك في تونس، لإبلاغة بحالة التمرد وعدم التزام المقاتلين بالأوامر العسكرية. وبعد أسابيع حضر عرفات وعقد اجتماعاً مع كوادر حركة فتح في بيته بصنعاء. وكان أبي ممثلاً عن المتمردين، وبعد عرض مطالب الثوار واعتراض قيادات من فتح على ما جاء فيها، توترت أجواء الاجتماع، وعندها صاح أبي في وجه عرفات متسائلاً إذا كان قد

تم جلبهم إلى اليمن لحلق ذقونهم وتلميع أحذيتهم، وهم الذين باعوا مصاغ زوجاتهم لشراء البنادق!

استمر التمرد لعدة أسابيع، وكان ذلك يلخص الحالة النفسية والمزاجية لدى المقاتلين، حيث كان هناك شعور بأن وجودهم في اليمن وتدريباتهم العسكرية لا طائل منها، ما لم تقترن بمشروع التحرر الذي قامت من أجله المنظمة والحركة، خصوصاً وأنه بدأت تسرب أحاديث عن مسار تسوية سلمية، تسقط خيار الكفاح المسلح.

في ذروة تذمر الثوار، أرسل مكتب ياسر عرفات في تونس برقية إلى قيادة فتح في اليمن، تطالب أعضاء الحركة بتسديد فواتير الكهرباء الخاصة بشققهم السكنية من رواتبهم، فقام أبي بتشكيل لجنة ضمت الشهيد ناصر بكر، وأبو محمد ونّاس، وأعلن اعتزامه عقد مؤتمر صحفي في مقر منظمة التحرير بصنعاء، للحديث عن أوضاع الثوار ومطالبهم.

في تلك الأثناء تلقى أبي العديد من الاتصالات من قيادات فتح، وطلبوا منه جميعاً إرجاء موعد انعقاد المؤتمر، لأن ياسر عرفات أمر بتشكيل لجنة تبحث في حيثيات الموضوع. وعلى ضوء ذلك ذكرت وكالات الأنباء بأن هناك محاولة انشقاق ثانية في اليمن على عرفات، وهو الأمر الذي دفعه إلى العودة مرة ثانية إلى صنعاء .

شهدت تلك الفترة ترويج إشاعات مغرضة تهدف إلى إثارة الفتنة لتغذية الحديث عن الانشقاقات داخل حركة فتح. فقد أشيع بأن قائد القوة المحمولة عبد المعطي السبعاوي، يسعى إلى اغتيال قائد قوات شقيف صائب العاجز، وأن صقر الدين، هو المكلف بتلك المهمة. لكن صائب العاجز كان على معرفة شخصية بأبي الذي عمل تحت قيادته حين كان ضابط إدارة القوات المشتركة في شمال لبنان، لذلك قام باستدعائه إلى مكتبه ليستوضح الأمر، وهناك أخبره بأنه مطلوب القبض عليه وترحيله إلى السودان، ونصحه بألا يستقبل أحداً في بيته .

في أعقاب ذلك قام ياسر عرفات، بإرسال عبد المعطي السبعاوي إلى الجزائر، فيما طلب أبي الانتقال إلى الساحة اللبنانية، فوافق عرفات على الفور. وكانت مجموعات صغيرة من المقاتلين قد بدأت بالفعل تتحرك باتجاه لبنان، بتشجيع من أبو جهاد وأبو إياد، بغية إعادة بناء وتنظيم حركة فتح هناك. أيضاً شهدت تلك الفترة تحرك عناصر من قوات شقيف باتجاه الساحة العراقية .

إذن، لم يدم مكوثنا في اليمن أكثر من ستة أشهر، كانت تجربة مريرة بكل المقاييس، ولكن كانت العودة إلى لبنان عن طريق سوريا أكثر مرارة.

ففي مطار دمشق احتجزت المخابرات السورية جميع ركاب الطائرة، بعد أن عرفوا أن بينهم مجموعة من حركة فتح، حيث كانت العلاقة بين النظام السوري ومنظمة التحرير الفلسطينية آنذاك في أسوأ وأحلك أوقاتها.

في الطريق ليلاً إلى مكتب التحقيق عبر حافلات تابعة لأجهزة المخابرات، أشار أبي ورفاقه إلى زوجاتهم بقرص الأطفال لدفعهم إلى الصراخ والبكاء، وكنت واحداً ممن نفذ بهم الأمر، فتحول الباص خلال ثوان معدودة إلى ورشة من ضجيج وصراخ لا يحتمل. في تلك الأثناء حاول رجال المخابرات الاستفسار من الزوجات إن كان لديهن أقارب في سوريا للمبيت عندهم إلى حين الانتهاء من التحقيق مع أزواجهن، فكانت الإجابة واحدة: لا يوجد لدينا أقارب هنا، أهلنا في لبنان، و نرغب في العودة إلى هناك .

كانت النية لدى المخابرات فصل العائلات لاعتقال الأزواج وتعذيبهم في السجون السورية، كما فعلوا مع آخرين، ولكن نظراً للأجواء المزعجة بسبب استمرار بكاء وصراخ الأطفال، تم تسليمهم إلى مكتب قدري للمنشقين في العاصمة دمشق، وبعد أن تم تسجيل بياناتهم، سُمح لهم بالتوجه صباح اليوم التالي إلى شمال لبنان.

وصلت المجموعة ظهر يوم الجمعة إلى مخيم البداوي، وفي الجامع الكبير بعد صلاة الجمعة، تفاجأ سكان المخيم بعودة أبي ومن معه، وبدأوا يرددوا:

ها هم شباب فتح يعودون من جديد، ولكن في نفس الوقت كان الخوف يتملك الجميع بسبب سيطرة التنظيمات الفلسطينية التابعة للنظام السوري على المنطقة.

كان يرأس تنظيم فتح في الشمال سليمان حلس أبو الوليد، لكنه لم يلبث أن غادر إلى تونس بعد ضغط المخابرات السورية عليه، فحل مكانه رفعت شناعة. وبعد اجتماع سري مع مسؤول التنظيم، تم الاتفاق على التزام جميع أفراد المجموعة في بيوتهم، إلى حين صدور قرار في هذا الشأن، حيث كان أي نشاط من شأنه أن يعرض صاحبه للاعتقال أوالاختفاء القسري.

فخلال تلك الفترة اعتقل عشرات المقاتلين، وتم الزج بهم في السجون السورية بتهمة الانتماء إلى حركة فتح، وكانت المخابرات السورية قد جندت العديد من أبناء المخيم لمدها بتقارير تفصيلية عن انتماءات السكان وتوجهاتهم السياسية.

وربما ما شفع لأبي ليبقى حراً طليقاً، هو سيرته الحسنة في المخيم وعلاقته الجيدة مع الجميع، فكثير من الأبرياء الذين لا علاقة لهم بفتح اعتقلوا بسبب تقارير كيدية. كانت الأجواء الأمنية في منتصف الثمانينات الأسوأ بالنسبة لسكان المخيم، واستمر الحال كذلك حتى مطلع التسعينيات.

فيما بعد أرسل رفعت شناعة، كتب نقل المجموعة من الساحة اليمنية إلى علي اللوح في عين الحلوة، الذي كان ممثلاً لحركة فتح في لبنان، ولكن بسبب الفوضى التي كانت سائدة والمعارك الجانبية التي كانت تخوضها حركة فتح مع حركة أمل من جهة، وحزب الله من جهة أخرى، لم يتم إدارج اسمائهم في القوائم المالية. لذلك لم يتمكنوا خلال تلك الفترة من الحصول على مخصصاتهم الشهرية، وكانوا منسيين في الشمال، مما اضطرهم للعمل في المهن الحرة المتاحة لإعالة أسرهم.

فبعد حرب لبنان عام ١٩٨٢، كانت وزارة العمل اللبنانية قد أصدرت قراراً يقضي بمنع الفلسطينيين من ممارسة أكثر من سبعين مهنة، بالإضافة الى مجموعة من القرارات الإدارية التي حددت الشروط القانونية للحصول

على إجازة عمل بالنسبة للأجانب، وهي جميعها لا تنطبق على اللاجئ الفلسطيني.

عمل أبي آنذاك في مهنة الدهان، وكان لديه من الأولاد ستة (ثلاثة أبناء، وثلاث بنات) وكنت أنا في الترتيب الرابع، سكنا في بداية الأمر بمنزل جدتي أم علي القريب من بنايات أبو نعيم، حيث استقر ياسر عرفات حين زار البداوي قبل الخروج الأخير، وفيما بعد بنى أبي منزلاً في أرض حكومية على أطراف المخيم قرب وادي النحلة.

لاشك أن هذا الإجراء مخالف للقانون اللبناني، ولكن الكثير من السكان بسبب الازدحام الشديد داخل المخيم، أقدموا على بناء بيوت بسيطة في الأراضي الحكومية الخالية. لاحقاً ساهم البناء الجديد في تمدد المساحة الجغرافية للمخيم، وبالتالي بات من الصعب على الحكومة التعامل مع هذا الخرق نظراً لعدم توفر بدائل أو حلول أخرى.

بعد عودة عبد المعطي السبعاوي إلى لبنان، تم حل مشكلة المخصصات المالية، وبات أبي يحصل على راتب كل شهرين بقيمة عشرين دولاراً، أي ما يعادل آنذاك ثلاثين ألف ليرة لبنانية. كان يتم ذلك بصورة سرية، بسبب تردي الأوضاع الأمنية، واشتداد الضغط من قبل التنظيمات الموالية للنظام السوري مثل: المجلس الثوري، والقيادة العامة. وهو الأمر دفع لاحقاً رفعت شناعة إلى مغادرة الشمال والاستقرار في عين الحلوة.

في تلك الفترة صدر قرار بتعين أبي مسؤولاً عن تنظيم فتح في مخيم البداوي، لكنه رفض القرار بسبب عدم فعالية التنظيم في الشمال وسقوطه أمنياً، فضلاً عن المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها بسبب ذلك. فقد كان أفراد المنظمات الأخرى يشيرون إلى أبناء فتح بالبنان ويقولون: هؤلاء زمرة عرفات. كما اضطر أبي لحمل هوية مزيفة، لينجو من ثلاث محاولات اعتقال من قبل المخابرات السورية.

أصرت قيادة فتح في بيروت على قرار تعيين أبي، وحين رفض أن يمتثل للقرار، أرسل له رفعت شناعة برقية طلب فيها إنهاء علاقته بالتنظيم.

فرفض ذلك أيضاً، نظراً لأنه مخالف لقواعد ومبادئ وأسس حركة فتح. وحينما اشتد الضغط عليه، قرر تجميد عضويته دون الانقطاع أو الانفصال عن الحركة بصورة تامة.

وبعد ثلاثة أشهر وصلته برقية من القيادة في بيروت تشيد بتاريخه النضالي وسجله الناصع. وعلى إثر ذلك أعيد تفعيل عضويته، واستمر الحال كما كان عليه في السابق، لا نشاط للحركة في الشمال، لا اجتماعات أو محادثات إلا للضرورة القصوى، وبصورة سرية.

في مطلع التسعينيات، بدأ وعي يتفتح بين أزقة المخيم، كنت أبلغ من العمر آنذاك عشر سنوات، لم أكن في حاجة للسؤال: لماذا أنا هنا؟ وإلى متى؟ وماذا تعني كلمة لاجئ؟ تلك أسئلة ولدت إجاباتها وكبرت معنا! أن تولد لاجئاً في مخيم يعني أن ترث وتحمل قضية بالفطرة. تحضر فلسطين دون استئذان في قماط الولادة المغزول بألوان العلم الوطني. في اسم المولود: كفاح، نضال، تحرير، صمود. في سلسال يناغي الرضيع بين حلمتين. في كوفية توشّح ابتسامته الأولى. في صورة شهيد أو أسير تتوسط صدر البيت. في شعارات تثمل الجدران بالشوق والحنين. وفي تراتيل تصدح كل صباح بأهازيج الثورة وتبشر بنصر مبين.

كان المخيم حيزاً من الجغرافيا عابراً للحدود، وكأنه نافذة نطل من خلالها على حيفا ويافا وعكا والقدس والخليل وغزة، نستطلع أخبار الأهل، نواكب بما يتاح لنا من مصادر آخر التطورات. أذكر في أحد الأيام من شهر أغسطس عام ١٩٩٠، كيف تجمهر عدد كبير من سكان المخيم في محيط دكان أبو عطا، الذي جلب أثناء ذهابه إلى مدينة طرابلس لشراء بعض الحاجيات، قصاصة من جريدة السفير اللبنانية، وقد ورد فيها خبر عن مواجهات عنيفة قرب بئر السبع، أدت إلى إصابة أربعة من أفراد الشرطة الإسرائيلية، كان هذا الخبر كفيلاً بإشاعة الفرح في جميع أرجاء المخيم، فتعالت الزغاريد في كل بيت.

أذكر أيضاً في مطلع عام ١٩٩١، أثناء حرب الخليج الثانية، كيف خرج سكان المخيم إلى الشوارع ابتهاجاً بقيام الرئيس العراقي الراحل صدام حسين، بقصف المدن الإسرائيلية بـ ٣٩ صاروخ سكود. أكاد أجزم بأن حلم التحرير والعودة إلى فلسطين كان خلال تلك الفترة التي قصف فيها الجيش العراقي عدة أهداف داخل الأراضي المحتلة، الأقرب بالنسبة لنا كلاجئين.

لم يشغلنا التأويل السياسي، وقراءة الأسباب الخفية التي دفعت صدام إلى القيام بتلك الخطوة الجريئة وغير المسبوقة.. ربما فكرنا في ذلك لاحقاً، غير أن كل ما كان يهمنا آنذاك ويبهجنا، أن إسرائيل تحت القصف، وأن الإسرائيليين هرعوا إلى الملاجئ. كانت تلك الأيام التي امتدت بين الثامن

عشر من يناير حتى الثاني عشر من فبراير من نفس العام، أيام عز ونشوة. فمع كل صاروخ يدوي في الأراضي المحتلة يسمع صداه زغاريد وتكبيراً وتهليلاً في شوارع وأزقة المخيم.

تكرر هذا المشهد لاحقا عام ١٩٩٤، حين بثت الإذاعة التي كانت تديرها الجبهة الشعبية في المخيم، نبأ عملية تفجير سيارة مفخخة بالعفولة، نفذها استشهادي من حركة حماس يدعى رائد زكارنة، أدت إلى مقتل ثمانية إسرائيليين وجرح ما لا يقل عن ثلاثين آخرين. وكانت العملية قد جاءت رداً على مذبحة المصلين في المسجد الإبراهيمي بمدينة الخليل.

في تلك الليلة خرج سكان المخيم إلى الشوارع وبدأوا بتوزيع الحلوى وسط التهليل والتكبير، وقد شهدت تلك الفترة من شهر أبريل، سلسلة من العمليات الاستشهادية في الداخل الإسرائيلي. وبرز آنذاك اسم يحيى عياش كمهندس لتلك العمليات، وبدأت صوره تنتشر في كل مكان، وكذلك اسمه الذي غطى الجدران واللافتات في المخيم.

لاشك أن آلام اللجوء والشتات كانت كبيرة، خصوصاً في ظل التهميش والممارسات العنصرية المتأصلة في السياسة اللبنانية، ولكن الآمال كانت أكبر في قلوب اللاجئين. لذلك لم يكن المخيم بؤرة من البؤس كما صوره ويصوره البعض، بل على العكس من ذلك، كان يضج بالحياة والأمل والنشاط والحيوية.

مازلت أذكر كيف كانت تتحول سطوح المنازل إلى ميادين فرح حين يخطب أو يتزوج أحدهم. الفرح في المخيم ملك للجميع، وينبع هذا الحق من الإحساس بأن سكان المخيم على اختلاف عائلاتهم والقرى والمدن التي نزحوا منها، هم في النهاية أسرة واحدة. لذلك لم تكن هناك حاجة لأن يقوم أهل العريس بدعوة الآخرين، يكفي أن يتم الإعلان عن المناسبة ليهرع الجميع بالتهاني والهبات والتبريكات. فذاك يتكفل بإعداد الطعام، وهذا يجلب الحلوى والعصائر، وجار يمنح العريس بذلته، وآخر يقدم سيارته لجلب العروس. أما الزفة فتجوب شوارع المخيم من أوله إلى آخره، حيث

يسير موكب العروسين ببطئ شديد كأنهما ملكان، تحيط به حلقات من الدبكة، وتتساقط فوقه من الشرفات أمطار من الأرز والسكاكر.

في عام ١٩٩٢، عرضت قناة أل بي سي اللبنانية على شاشتها مسلسلاً مكسيكياً مدبلجاً باللغة العربية، كان اسمه «مهما كان الثمن»، لاقى المسلسل رواجاً كبيراً في العالم العربي، وكان من أولى المسلسلات المدبلجة باللغة العربية، وقد كان لنا نصيب في المخيم من هذا المسلسل الذي أضفى جواً من التشويق في بيئة يصيبها أحياناً شيء من الرتابة.

أذكر كيف كانت العائلات تجتمع حول شاشة تلفاز صغيرة ووحيدة في بهو بيت جارنا أبو وسيم لمتابعة المسلسل، فقد كان التيار الكهربائي ينقطع مراراً، وكان لدى جارنا تلفاز صغير يمكن أن يشتغل بواسطة بطارية السيارة. أذكر في صباح اليوم الذي سيعرض فيه المسلسل، كيف كان الجيران يذكّرون أبو سيم بشحن البطارية، كي يتسنى لهم متابعة أحداث المسلسل في المساء.

الحديث عن التلفاز يعيدني بالذاكرة إلى أواخر الثمانينات، حيث لم يكن يوجد سوى تلفاز واحد في المخيم، عند رجل مسن يدعى أبو مصطفى، كان شباب المخيم يتجمهرون ظهر كل يوم جمعة حول الشاشة لمتابعة مباريات الدوري المصري في كرة القدم. في ذلك اليوم كان يتحول بيته البسيط إلى مدرج في استاد القاهرة، فتسمع الهتاف والصراخ والتهليل وكأنك في مظاهرة.

ولكن الطريف في بيت أبو مصطفى ليس وجود التلفاز الوحيد في المخيم، بل الدكانة الوحيدة التي يباع فيها ألبسة وأحذية مستعملة. كانت دكانته عبارة عن غرفة واحدة فيها أكوام من الأحذية والملابس تصل إلى حد السقف. وكثيراً ما اصطحبتني أمي إلى هناك لشراء حذاء. لم يكن الأمر سهلاً، فبعد اختبار الحذاء المناسب، يقوم أبو مصطفى بتسجيل اسم المشتري ويعطيه موعداً يمتد أحياناً إلى أسبوع كامل، وذلك ليتسنى له البحث عن الزوج الآخر من الحذاء الذي عادة ما يكون غارقاً تحت أكوام من الأسمال البالية.

وكذلك أيضاً الهاتف، لم يكن حتى مطلع التسعينيات يوجد في المخيم سوى هاتف واحد لدى رجل مقتدر يدعى أبو حسن، قبل ذلك الوقت كان التواصل بين الأهل والأقرباء في الوطن والشتات يتم عبر الإذاعة، أو عبر برقيات مكتوبة بخط اليد، أو عبر تسجيل صوتي بواسطة شريط كاسيت.

لذلك قام أبو حسن بفتح مكتب اتصال (سنترال مونتانا)، ساعد كثيراً سكان المخيم في التواصل السريع والمستمر من أهلهم وذويهم. ولكن كانت العملية تتم بصورة طريفة أيضاً، على سبيل المثال: حين يتصل عمي من فلسطين ليكلم أبي، يطلب منه أبو حسن معاودة الاتصال بعد نصف ساعة، وعلى الفور يطلب من أمرأة بسيطة تعمل لديه بالأجرة تدعى أم حسن، أن تذهب إلى صاحب الشأن لإبلاغه.

وهنا يحدث المشهد الجميل، فحين تسير أم حسن في طرقات المخيم يسألها كل من يصادفها: لمن الاتصال؟ فتجيب: لأبو زياد، وحين تصل بيتنا يكرمها أبي، ثم يلحق بها إلى السنترال. وفي الطريق تتعالى الأصوات: إن شاء الله خيراً يا أبو زياد! ننتظر البشرى! أين الحلوان؟ مين قدك يا عم لديك اتصال من فلسطين! كل هذه المداعبات تستمر على طول المسير وصولاً إلى سماعة الهاتف. وبهذه الطريقة يكون نحو نصف سكان المخيم على علم بأن أبي تلقى اتصالاً من أهله، فيقاسمونه أما فرحه أو حزنه، وذلك يتوقف بطبيعة الحال على ما سيرد من أنباء في تلك المكالمة.

أما عن التكافل والتوادد والتراحم بين سكان المخيم، فالحديث يطول، بدءاً من قصة الالتحاق بالمدرسة، وصولاً إلى طبق الطعام السحري. ففي اليوم الأول لي بمدرسة البطوف الابتدائية، ذهب معي أبي لإتمام بعض إجراءات التسجيل، واصطحبني إلى فصل الدراسة، وهناك التقى بمعلم اللغة الإنكليزية الأستاذ أحمد قشقوش، ودار الحديث التالي:

ـ هذا ابني علي بين يديك، لك اللحم ولنا العظم

ـ ما حذرت يا أبو زياد، اللحم والعظم لنا.

لم أدرك آنذاك أبعاد هذا الحوار الملحمي ومعناه المجازي، شعرت بأني خروف يقدم إلى جزار في ليلة عيد. فهمت لاحقاً بأن ذلك يعني أن المسؤولية جماعية، وأن حرص الأستاذ على تعلم الطلاب يكاد يفوق حرص الأهل، وهو شعور نابع من إدارك آبائنا بمدى أهمية التعليم باعتباره سلاحنا الأساسي في معركتنا الطويلة على عدة صعد وجبهات. وقد كان ثمن ذلك عشرات العصي التي تكسرت على يدي رغم تفوقي الملحوظ، لكن علامة واحدة ناقصة في أي مادة من المواد المقررة، كانت كفيلة وحدها بإشعال ثورة ضدي، ليس فقط في المدرسة بل والمنزل أيضاً، لذلك دائماً ما كانت تأتي العقوبة مضاعفة!

أما طبق الطعام السحري، فله علاقة بعادة دأب عليها نسوة المخيم، فحين تقوم واحداة منهن بطهي الطعام، تسكب لجاراتها (بما لا يقل عن سبعة بيوت مجاورة) ليتبقى لها طبق واحد، وكذلك يفعلن الأخريات. لذلك حين تجتمع الأسرة الواحدة على المائدة، يصعب على أفرادها التعرف على طعام البيت، نظراً لتعدد الأطباق وتنوعها. وتكمن المصادفة الجميلة حين يعود أحد الأطباق الصادرة، إلى أصله وعلى حاله، وذلك بسبب اتساع نطاق التداول بين الجيران، عندها يضحك الجميع بينما تعلق الأم بابتهاج: هذه بضاعتنا ردت إلينا.

بين تلك الأجواء والفصول والتحولات والتقلبات السياسية والمزاجية، ظلت فلسطين راسخة في قلوب وذاكرة اللاجئين، لا تمس كعرش بعيد يحيمه ويحمله الشهداء، أو كجنة معلق مفتاحها على جدار عتيق بانتظار شمس انتصار.

ذات شوق، علم الجيران أن أبو يحيى كايد، وهو من وجوه الخير في المخيم، عاد من زيارة قصيرة إلى منطقة الجليل، وقد جلب معه، ضمن هداياه لأهله، بضعة حبات من برتقال يافا. أذكر في ذلك اليوم كيف تحول بيته إلى قِبلة تولى نحوها الأبصار والأفئدة. فتوافد السكان كالحجيج إلى هناك لاحتضانه وشم رائحة فلسطين في ثيابه. قلة من الأقرباء من حالفهم الحظ لتذوق طعم البرتقال، أما البقية، فاكتفوا بترف العناق ولثم الثياب!

تكرر نفس المشهد في بيتنا، كان ذلك عام ١٩٩٣، حين تمكن أبي من جلب أحد مبعدي مرج الزهور إلى مخيم البداوي في زيارة خاطفة. كان ذلك الشخص الدكتور الراحل حماد الحسنات أحد مؤسسي حركة حماس. ففي ديسمبر من عام ١٩٩٢، قامت قوات الاحتلال الإسرائيلي بإبعاد أكثر من أربعمئة شخص من قيادات حماس والجهاد الإسلامي إلى جنوب لبنان، في خطوة أثارت غضب المجتمع الدولي. وكان الدكتور حماد، جاراً لعائلة أبي بمخيم النصيرات في قطاع غزة، وبعد أن سمحت السلطات للمبعدين بالقيام بجولات داخل الأراضي اللبنانية، تمكن أبي من جلب الدكتور إلى بيتنا في زيارة قصيرة جداً. وحين علم سكان المخيم بقدومه، هرعوا لرؤيته والسلام عليه، ولا زلت أذكر كيف خرج من المخيم محمولاً على الأكتاف والأعناق، كأنه شهيد حي.

بعد عقد كامل على خروج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان، كان الحديث عن المنظمة وفصائلها قد بدأ يخبو شيئاً فشيئاً، فمنذ عام ١٩٨٧، كانت الكلمة العليا لأطفال الحجارة الذين سحبوا بانتفاضتهم المجيدة، البساط من تحت أقدام القيادة الفلسطينية.

فكانوا هم القادة والممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، والرقم الصعب في معادلة لا تقبل القسمة على اثنين. لازالت أذكر كيف أصبحت جدران المخيم معلقات شعرية تشيد بجرأتهم وبطولاتهم: «أطفال الحجارة .. بهروا الدنيا، وما في يدهم إلا الحجارة، وأضاءوا كالقناديل، وجاؤوا كالبشارة».

«يا تلاميذ غزة علمونا بعض ما عندكم فنحن نسينا، علمونا كيف الحجارة تغدو بين أيدي الأطفال ماسا ثمينا، كيف تغدو دراجة الطفل لغما، وشريط الحرير يغدو كمينا، كيف مصاصة الحليب إذا ما اعتقلوها تحولت سكينا».

«من شقوق الأرض طلعتم وزرعتم جراحنا نسرينا، هذه ثورة الدفاتر والحبر فكونوا على الشفاه لحونا، أمطرونا بطولة وشموخا واغسلونا من قبحنا اغسلونا، إن هذا العصر اليهودي وهم سوف ينهار لو ملكنا اليقينا، يا مجانين غزة ألف أهلا بالمجانين إن هم حررونا، إن عصر العقل السياسي ولي من زمان فعلمونا الجنونا».

في ذروة النشوة والشعور بالفخر والاعتزاز، أعلن في الثالث عشر من سبتمبر عام ١٩٩٣، توقيع «إعلان المبادئ حول ترتيبات الحكم الذاتي الانتقالي»، أو ما بات يعرف بـ «اتفاق أوسلو»، نسبة إلى مدينة أوسلو النرويجية التي استضافت محادثات سرية بين منظمة التحرير الفلسطينية والحكومة الإسرائيلية.

قضى الاتفاق بإقامة حكم ذاتي للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، لمرحلة انتقالية لا تتعدى خمس سنوات، يتم بعدها التفاوض بشأن القضايا الأساسية والتي تشمل القدس، وحق العودة والحدود والمستوطنات، غير أن اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك اسحاق رابين، حال دون كل ذلك.

شكل الاتفاق صدمة كبيرة بالنسبة للفلسطينيين عموماً وللاجئين على وجه الخصوص، وأحدث انقساماً حاداً في الشارع الفلسطيني والعربي. فقد جاء في وضع دولي معقد، كانت المنظمة قد خسرت الرهان على حليفها العربي بسبب موقفها من حرب الخليج الثانية، بالإضافة إلى انهيار الاتحاد السوفيتي الذي كان داعماً لحركات التحرر في العالم.

لكن ذلك بالطبع ليس سبباً كافياً للدخول في ركب التسوية، لذلك كان من جملة من قيل عن الاتفاق آنذاك، بأنه لم يرتق إلى حجم التضحيات التي قدمها الشعب الفلسطيني خلال عقود من الكفاح والنضال. وبأن الشهداء لم يضحوا بأرواحهم ودمائهم من أجل سلطة انتقالية وحكم انتقالي على جزء من الأراضي المحتلة.

كان موقف أبي من اتفاق أوسلو يميل إلى القبول مع التحفظ على بعض البنود التي وردت فيه. أذكر كيف كان يكرر أمام رفقائه، إنه أشار سابقاً وبالتحديد أثناء وجوده في صنعاء عام ١٩٨٣، إلى ضرورة انتقال شرارة الثورة إلى داخل فلسطين بعد فشلها في الخارج. ولطالما اعتبر أن أهم ما جاء في أوسلو هو إيجاد أرضية فلسطينية تضمن استمرارية الكفاح الوطني من الداخل في ظل انسداد أفق العمل المسلح، خصوصاً بعد إغلاق حدود دول الطوق (لبنان، سوريا، الأردن، مصر).

في الخامس من مايو عام ١٩٩٤، تم الإعلان في القاهرة عن توقيع اتفاق «غزة أريحا»، ما يعني دخول إعلان المبادئ حيز التنفيذ، والبدء بالانسحاب من غزة وأريحا، تمهيداً لنقل الحكم والإدارة في هاتين المدينتين من السلطات لإسرائيلية إلى الفلسطينيين.

تابعنا ذلك الإعلان عبر تلفزيون صغير في البيت، أذكر جيداً كيف كان أبي مبتهجاً، وكيف عانق جارنا وصاح بأعلى صوته: «مبروك علينا فلسطين يا أبو محمد». شعرت آنذاك بأننا سنعود في اليوم التالي إلى الوطن، وإلا ما سر سعادة أبي الغامرة، لم أراه هكذا من قبل.

لاحقاً، عرفت بأن سفره الطويل أتعب جناحيه، وأنه لم يعد يقوى على انتظار الحلول النهائية. ربما كان واقعياً في انطلاقه من فرضية أنه ليس بالإمكان أفضل مما كان. من يدري، فقد تتحول السلطة الانتقالية إلى سلطة دائمة، وقد تصبح يوماً ما دولة، وقد يدفع ذلك إسرائيل إلى الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني.

في أكتوبر عام ١٩٩٦، جاءت أم حسن تحمل البشرى، مكالمة من فلسطين. على الطرف الآخر، عمي أبو ياسر، يخبر أبي بأن السلطات الإسرائيلية وافقت على منحه تصريح زيارة إلى قطاع غزة لمدة ثلاثة أشهر.

تتعالى الزغاريد في البيت، ويتوافد المهنئون من كل حدب وصوب. أخيراً سنعود إلى الجزء المتاح من الوطن. ذاك الحلم الذي تقاسم معنا حواسنا الخمس سيصبح حقيقة! ذاك الوطن الذي عاش وتغلغل فينا سيخرج من كريات دمنا الحمراء، ليحيل الشوق مداداً أبيض يفضي إلى ظل زيتونة في غزة.

كنت أبلغ من العمر آنذاك خمسة عشرة عاماً، أما أبي فكان قد مر على غربته عن أمه ٢٧ عاماً، وهي فترة كفيلة بإسقاط حكم غيابي ضده بالسجن ربع قرن، بسبب قتله ضابطاً إسرائيلياً في قطاع غزة عام ١٩٦٩.

تتسارع الإجراءات لاستخراج وثائق سفر لأفراد الأسرة، وهي وثائق سفر لبنانية خاصة باللاجئين الفلسطينيين، سيفاجأ أبي بأني وأختي الصغرى فاطمة غير مسجلين في دوائر النفوس اللبنانية، ويعزى ذلك إلى أننا ولدنا في فترة الحرب.

ينتابنا القلق، فقد يستغرق ذلك وقتاً طويلاً في ظل بيروقراطية المؤسسات

الحكومية، ما يعني تأخير أو تأجيل حلم العودة إلى أجل غير مسمى.

تبدأ الاتصالات وتدفع الرشى كالمعتاد في مثل هذه الحالات لتسريع الإجراءات.. أذكر هنا موقفاً طريفاً حدث أثناء تسجيل اسمي، فمن فرط لهفة أبي، تغاضى عن خطأ تسبب في منحي اسماً مختلفاً عن بقية أفراد الأسرة، وكان ذلك حين سأله موظف السجل المدني عن اسمي، فقال: علي أبو مراحيل، فكتب الموظف الاسم كما يلفظ باللهجة اللبنانية (أي قلب الألف ياءً) فأصبح اسمي علي أبو مريحيل. لم يكلف أبي نفسه عناء تصحيح الاسم، كان يريد أن ينهي المعاملة بأي ثمن حتى ولو كلفه ذلك أن يكسب ابنا جديداً بزلة قلم أو لسان.

في اليوم الأخير لنا في المخيم، تحول بيتنا إلى مخيم آخر، كانت عبارات الوداع أقرب إلى الاستجداء: ليتني قطعة قماش في حقيبة تقلع معكم إلى فلسطين. إلى هناك خذوني معكم. أنتم السابقون ونحن اللاحقون.اسقونا من زمزمكم علنا نلحق بكم. كما لبثنا في المخيم، لبثنا يوماً أو بعض يوم!

عما قليل ستقلع الطائرة من بيروت إلى القاهرة، تستوقفني دمعة جدتي وهي تقف على عتبة عقدها السابع، تلوح بيدها: نراكم في فلسطين! هل كانت تعني ما تقول؟ أم هي محاولة لمواساة النفس على مفترق طرق قد لا يفضي إلى لقاء آخر.

عاشت جدتي وحيدة طيلة حياتها، فبعد سنوات قليلة من زواجها، تزوج جدي بأخرى، ولم ينجب منها سوى أمي وخال واحد. كانت بالنسبة لنا مصدر الدفء، ونبعاً من الحنان لا ينضب، كنا نتكامل فيها حين يلح علينا شعور النقص بافتقادنا لترف مناداة الأقرباء من طرف الأب. لازلت أذكر كيف كنا نتسابق أنا وأخوتي لتسريح خصلات شعرها البيضاء المنسدلة على كتفيها كأنها ستائر حرير.

كان وجهها آخر ما طبع في الذهن من أثر المخيم. «شدي حيلك يا أم علي، ذاهبون إلى غزة، لكن لقاءنا في الصفصاف بإذن الله»، كانت تلك كلمات أبي لجدتي قبل أن تتوارى خلف ضباب من الدموع والأمنيات!

وصلنا إلى مطار القاهرة ليلاً، وهناك سؤلنا عن وجهتنا فقلنا فلسطين، كانت المرة الأولى التي نتحدث فيها بهذا القدر من اليقين. الوقت متأخر الآن، هل تفضلون المبيت في الفندق ثم تتوجهون غداً صباحاً إلى قطاع غزة. لا مزيد من الانتظار فنحن على بعد ستمئة كيلومتر من حدود فلسطين، سنذهب الآن لنكون صباحاً في غزة.

غزة، العريش، معبر رفح، غزة، غزة .. ينادي السائق، يفاوض أبي، نستقل سيارته البيضاء والسوداء، لطالماً شاهدنا مثل هذه المركبات في المسلسلات المصرية. أخيراً نحن في مركبة وجهتها فلسطين. كانت لحظات أشبه بالحلم. كان يغالبنا النعاس لكن التوق إلى معانقة الوطن كان يغلب أي شيء آخر حتى الجوع.

بقي على الوصول أربعمئة كيلومتر، ثلاثمئة وخمسين، مئة وثمانين.. كنت وأخوتي نترقب اللافتات على الطريق الصحراوي ونقرؤها بطريقة هستيرية كأنها بشرى وهدايا تتساقط علينا من السماء.

أخيراً، وصلنا فجراً إلى معبر رفح الحدودي، يجري أبي اتصالاً، ينتظرنا عمي في الخارج، تفصلنا عنه بضعة أمتار، بل بوابة واحدة، لكن علينا أولاً استكمال إجراءات الدخول.. يبدو الموظف غريباً، شعره أشقر وعيناه زرقاوتان، غير أنه يتحدث العربية بطلاقة. من هؤلاء يا أبي؟ التزموا الصمت، هذا موظف إسرائيلي! كيف ذلك؟ وماذا يفعل هنا؟ ولماذا لم يقتله أحد؟ أسئلة بريئة من جيل لم يطالع بنود أوسلو. لم نعتد كلاجئين أن نرى إسرائيلياً لا يجري خلفه الأطفال بالحجارة. كانت تلك المرة الأولى التي نرى فيها إسرائيلياً من لحم ودم، قبل أن نعتاد لاحقاً على ذلك في قطاع غزة!

فُتح الباب.. ها هو عمي نسخة طبق الأصل من أبي، كأنهما توأمان، نجري عليه كأطفال يتامى، نرتمي في حضنه.. يركع أبي يقبل ثرى الوطن، يبكي كطفل صغير، يتجمهر حولنا الأقرباء، الكثير من الوجوه السمراء، لا نعرف أحداً بينهم، حتى أبي لم يستطع أن يتعرف إلا على أخيه الأصغر.

فقد مر على خروجه نحو ثلاثة عقود، مات فيها جيل وكبر آخر. غادر شاباً وحيداً أعزلاً مع أمنياته وحلمه بتحرير وطنه، وعاد بموجب تسوية سياسية وفي جعبته ستة أولاد وزوجة.

تشرق الشمس على الصباح الأولى لنا في غزة، تلك العجوز السمراء الجالسة مثل ملكة بين أحفادها، جدتي أم محمود، وهذا عمي أبو ياسر وزوجته والكثير من البنين والبنات، هؤلاء أقربائي، عزوتي، سندي. ولكن أين عمي محمود؟ كنا قد تعلقنا به من كلام أبي عنه، كان مناضلاً وقد عاد قبلنا إلى قطاع غزة مع قوات عين جالوت.

يطبق الصمت، وبعد حين نعلم أن هناك خصومة بينه وبين عمي. كانت تلك الصدمة الثانية لنا بعد صدمة الموظف الإسرائيلي في معبر رفح. لم نعتد على الخصومة بين الأشقاء، كان ذلك شيئاً من المحرمات بالنسبة لنا في المخيم، يكاد يكون أقرب إلى الكفر.

لم يمض أسبوع على وصولنا حتى نشب خلاف بين أبي وعمي أبو ياسر، بسبب مكان سكننا، حيث أراد عمي أن نسكن في الطابق السفلي من بيته، بينما أصر أبي على أن نقيم في بيت مستقل تجنباً لأي مشكلات عائلية قد تفرض نفسها في مثل هذه الحالة. ولكن قبل ذلك كان ينبغي عليه أن يتمم إجراءات نقله من الساحة اللبنانية إلى قطاع غزة، ليباشر عمله ويتلقى راتباً يعينه على إعالة أسرته.

في مكتب التنظيم والإدارة بغزة، التقى أبي بمدير المكتب محمد يوسف، وهناك تفاجأ برتبته العسكرية، حيث كان قد رفع إلى رتبة نقيب منذ عام ١٩٩٣، لكنه لم يتلق إشعاراً بذلك من مسؤول مكتب فتح في لبنان سلطان أبو العنين. كما أن آخر راتب حصل عليه قبل سفره إلى غزة كان بمقدار عشرين دولاراً، ما يشير إلى أن هناك اختلاسات مالية كانت تحدث حالت دون علم عناصر التنظيم برتبهم العسكرية.

سأل محمد يوسف عن كتاب النقل، فأخبره بأن سلطان أبو العنين رفض إعطائه ذلك الكتاب - ربما للتستر على الانتهاكات والاختلاسات المالية-

فأرسل برقية إلى مكتب لبنان، وكانت الصدمة حين جاء الرد بأن أبي مدرج على قوائم المشنقين عن حركة فتح. في تلك الأثناء ثار أبي وانفعل في وجه محمد يوسف كما لم ينفعل من قبل، وتساءل: مادام من المشنقين، كيف إذن كان يتسلم راتبه نهاية كل شهر من التنظيم، وبعد سجال طويل لم يسفر عن شيء، غادر مكتبه غاضباً ومصدوماً.

بعد ذلك توالت الكتب والتزكيات من القادة الذين يعرفون أبي، لتبرأته من تهمة الانشقاق، بشهادة كل من:أحمد العفيفي نائب مدير المخابرات العامة آنذاك، والشهيد عبد المعطي السبعاوي الذي كان مسؤلاً عن تنظيم حركة فتح في لبنان. وعبد الله الإفرنجي مسؤول التعبئة والتنظيم في الحركة. غير أن كافة تلك البرقيات لم تنصف أبي على قوائم الرتب، ولم تسهم في تسوية وضعه التنظيمي ومنحه ما يستحق بعد مسيرة حافلة بالكفاح والنضال. لاحقاً وبعد عدة محاولات شملت تحريك جاهات ودفع رشى، تم منحه رتبة ملازم أول عام ١٩٩٨، في وقت كان يفترض أن يرفع إلى رتبة رائد حسب تسلسل الرتب العسكرية.

إذن، لم تكن طريق أبي وردية في أيامه الأولى بغزة، دائماً كان ثمة ما ينغص عليه وعلينا فرحتنا بالعودة، اضطررنا للسكن بالإيجار، وكان راتب أبي بالكاد يكفي لسد الحاجات الأساسية، فقد كانت عائلتنا كبيرة نسبياً، وكنت مع اثنتين من شقيقاتي على مشارف الالتحاق بالثانوية العامة. في تلك الأثناء تزوج ابن عمي أختي الوسطى. أما أخي الأكبر الذي لم يكمل دراسته، فعمل في عدة مهن حرة من أجل مساعدة أبي.

أما أنا فالتحقت بمدرسة خالد بن الوليد الثانوية. أذكر في اليوم الأول أن أستاذ اللغة الإنجليزية سألني عن اسمي، فجاوبته، فأردف قائلاً: بدوي أم فلاح؟ لم أعرف إجابة السؤال، وأثناء صمتي وارتباكي، علق مبتسماً: غداً ستعرف الإجابة!

لم يسبق لأحد أن وجّه لي مثل هذا السؤال، ولم أكن حقيقة أعرف إجابته أو مغزاه، ففي المخيم كنا جميعاً فلسطينيين، لم نقسّم بعضنا على اعتبارات

جهوية أو فئوية أو قبلية. لكني عرفت فيما بعد معنى أن تكون بدوياً أو مدنياً، أو فلاحاً أو مهاجراً، تلك التقسيمات كانت متغلغلة في مجتمع غزة، تدخل في كل شيء: في الدراسة، والزمالة، والصداقة، والوظيفة، والمصاهرة. لاشك أن للاحتلال يداً في تغزية تلك التقسيمات، لكنها كانت بالفعل متجذرة في غزة إلى درجة لا تطاق.

كنت أرى أنها أقرب إلى العنصرية، فالسؤال عن أصلك في وطنك هو الغربة في عينها، كنت أراه سؤالاً عبثياً مستفزاً، لكن بالنسبة للآخرين كان وسيلة يتم بواسطتها تحديد طريقة التعامل معك، فإذا كنت بدوياً فذلك يعني أنك جئت من وراء الخيام والإبل لا تستحق التقدير، وإذا كنت مهاجراً، فذلك يعني أنك تخليت عن أرضك ولم تدافع عنها بالقدر الكافي أمام العصابات الإسرائيلية. أما المدنيون، فهم الظرفاء دائماً والأغنياء الذين لا ترد لهم كلمة.

لاحقاً رفضت عائلة من غزة تزويج ابنتها لأخي الأكبر، لأنهم عرفوا أن أصوله بدوية، رغم أن بياضه أقرب إلى الشقرة، ومبسمه جميل، ولهجته شامية.

في أحد الأيام، عملت أمي فطائر بالسبانخ، وهي الأكلة المفضلة لأختي المتزوجة، فبعثت إليها طبقاً حملته بنفسي، وعند وصولي إلى باحة البيت، سألتني زوجة عمي عما أحمل، فقلت: طعاماً لأختي، فردت غاضبة: وهل نحن نجوعها، أم نتركها دون طعام!.

كانت العلاقة في تلك الأثناء مشحونة بسبب اختلاف العادات والتقاليد. وعندما أصريت على الدخول تهجم علي أبناء عمي، فكان نصيبي أن كسر الصحن الزجاجي على رأسي، فسال دمي في باحة البيت ونقلت على إثر ذلك إلى المستشفى لغرز الجرح الذي لا يزال له أثر في رأسي حتى اليوم.

وهناك في قسم الطوارئ، تذكرت مبتسماً الطبق السحري الذي كنا نتداوله في المخيم، وقلت لنفسي: لعله عاد هذه المرة بسكين!

تمر الأيام ويبدأ أبي دواماً رسمياً في جهاز الأمن الوطني التابع للسلطة الفلسطينية، وهو جهاز تم إنشاؤه عام ١٩٩٤ بموجب اتفاقية أوسلو، ويعتبر بديلاً لجيش التحرير الفلسطيني، أسندت إليه مهام الحفاظ على الأمن والنظام العام وحماية الحدود، وإن كانت غزة آنذاك أرضاً مستباحة تقطع أوصالها المستوطنات والحواجز الإسرائيلية.

كنت أتردد على مكان خدمته بين حين وآخر، لفت نظري تقدم سن المناوبين وكثرة الضباط والرتب، أما عن المهام التي كانوا يقومون بها، فأيسرها تحضير الطعام لوقت الغداء، وأصعبها الانتشار على الشريط الساحلي تحت شمس حارقة، لتحية موكب ياسر عرفات أثناء تنقله بين محافظة وأخرى.

كان أبو عمار كثير الحركة، لايبرح مكاناً إلا ويستعرض حرس الشرف على بساط أحمر، لا أدري لماذا كان يصر على تلك المراسيم، رغم أنه على أرضه وبين شعبه. أذكر قصة ذكرها أبي، أن ياسر عرفات رفض في إحدى زياراته إلى اليابان النزول من الطائرة لأن اليابانيين لم يفردوا له بساطاً أحمر، وقد برر ذلك لمقربين منه، بأنه يمثل الرمز الفلسطيني، وبالتالي فإن عدم احترامه يعني تقليلاً من شأن فلسطين. ذلك الموقف يستحق الثناء دون أدنى شك، لكني لازلت لا أفهم سبب إصراره على فعل ذلك في فلسطين!

تتوالى الأيام والسنوات، وتبدأ ملامح غزة تتغير في ظل السلطة الوطنية الفلسطينية، الكثير من الفنادق والمنتجعات السياحية على الساحل، مباني فاخرة أشبه بالقصور يملكها مسؤولون كبار في منظمة التحرير. تلك فيلا لزوجة الشهيد خليل الوزير أبو جهاد، وهذه الفيلا لزوجة الشهيد ممدوح صيدم أبو صبري، وهناك على تلك الهضبة قصر لوزير التخطيط والتعاون الدولي نبيل شعث، وهذا المربع الأمني المغلق لرئيس جهاز الأمن الوقائي محمد دحلان، كنت أشاهد وأحصي تلك الفيلل المتقاربة وأنا أبحث ذات صيف عن فرصة عمل تساعدني في تسديد أقساط الجامعة. لاحقاً سأوفق في العمل كمضيف بفندق ومطعم الديرة، حيث كان يتردد هناك المسؤولون

وأبناؤهم لأخذ قسطاً من الراحة في زحمة انشغالهم بإعلاء اسم فلسطين.

في ذلك الحيز السياحي، كنت أرى غزة كأنها باريس: مجتع مخملي، سيارات فاخرة، مرافقون وحراسات لزوجات المسؤولين وأبنائهم وأحفادهم.. أهذا هو الوطن الذي كنت أحلم به، هل تحررنا حقاً، ألهذا الحد نملك ترف التمتع بالحياة والسلطة. أين الاحتلال الإسرائيلي من كل هذا، أين المستوطنات والانتهاكات اليومية في القدس والضفة الغربية. أسئلة كانت تبدو بعيدة جداً وغريبة!

أذكر في تلك الفترة، واقعة اغتيال مدير تلفزيون فلسطين هشام مكي، فقد كنت شاهداً على تلك الجريمة حيث كنت أعمل مضيفاً في فندق بيتش الواقع على ساحل غزة. ففي مطلع عام ٢٠٠١، وأثناء تناول مكي قهوته الصباحية في باحة الفندق المطل على الساحل، تقدم منه رجل ملثم وأطلق عليه عدة رصاصات كانت كفيلة بقتله على الفور. قيل فيما بعد إن من قتله عناصر من كتائب شهداء الأقصى المنبثقة عن حركة فتح، بسبب قضايا فساد واختلاسات مالية لم يعدم بالإمكان السكوت عنها.

تبع ذلك بسنوات قليلة اغتيال اللواء موسى عرفات، مسؤول جهاز الاستخبارات الفلسطينية آنذاك، حيث تم قتله في منزله بحي الرمال الجنوبي، على يد عناصر قيل إنهم من لجان المقاومة الشعبية.

كانت غزة آنذاك ميداناً للصراع وتصفية الحسابات بين الأجهزة الأمنية والعسكرية المتشعبة، فلكل مسؤول فيها ذراع عسكري أو مليشيا مسلحة. كان محمد دحلان مسؤولاً عن جهاز الأمن الوقائي، وكانت لديه فرقة عسكرية عرفت في غزة باسم "فرقة الموت" وكانت مهامها تقتصر على تصفية الخصوم. وكذلك مسؤول جهاز الاستخبارات، والأمن الوطني، وجهاز الشرطة الذي كان يرأسه غازي الجبالي، والمخابرات العامة برئاسة أمين الهندي. الكثير من الأجهزة والأجنحة، تشعر معها بأن غزة على وشك الطيران.

يكفي أن تكون منتسباً لأحد هذه الأجهزة لتعيث ظلماً وفساداً دون أن يوقفك أحد.

كما برزت آنذاك ظاهرة نفوذ الحمولات العائلية، وهي ظاهرة عززها ياسر عرفات بعد قدومه إلى غزة. فمجتمع غزة يقوم على العشائرية والقبلية، ولكي يضمن عرفات سيطرته التامة، قام بمنح ممثلين عن العائلات الكبيرة مناصب متقدمة في السلطة، ليضبط ولاء العائلة ويحكم انضباطها. ومن أبرز تلك العائلات، عائلة حلس التي كان لها نصيب الأسد من المناصب الإدارية والعسكرية، إلى حد أصبحت فيه منطقتهم بحي الشجاعية أشبه بدولة داخل الدولة، نظراً للنفوذ الكبير الذي تمتعوا به على مستوى التسليح والرتب العسكرية العالية.

أذكر في إحدى المرات أن عناصر من العائلة اقتحموا محكمة داخل مجمع السرايا في غزة، وهو أكبر تجمع للأجهزة الأمنية الفلسطينية، وقاموا بتحرير أحد أفراد العائلة الذي كان ينتظر حكماً بالإعدام على خلفية قتل مواطن دون وجه حق.

وأنا شخصياً لدي قصة طريفة مع هذه العائلة، ففي عام ٢٠٠٤ كنت طالباً في كلية الاقتصاد والعلوم الإدارية بجامعة الأزهر في غزة. وكنت قد بدأت في نشر مجموعتي الشعرية الأولى «مذكرات عاشق». كانت المجموعة غارقة بالرومانسية، وتتناقض تماماً مع الواقع الفلسطيني. لكن، كانت لدي فلسفة خاصة في تبرير ذلك، وإن كنت حقيقة متأثراً كغيري من الشعراء المبتدئين بمدرسة الشاعر السوري الراحل نزار قباني، حيث كنت أود التأكيد من خلال الشعر، على أننا طلاب حياة ولسنا طلاب موت، وأننا شعب عاشق ينهزم أمام الأنوثة بنفس الجدارة التي ينتصر فيها على الاحتلال.

أذكر أنه بعد نشر المجموعة في مكتبة الجامعة وتداولها بشكل واسع النطاق بين الطلاب، صدر قرار من مكتب الشؤون الإدارية بسحب الكتاب بحجة أن القصائد التي وردت فيه تخدش الحياء العام. فأشار عليّ صديق خبيث،

باللجوء إلى طالب من عائلة حلس (كان يدخل حرم الجامعة بمسدس على خاصرته)، وبالفعل توجهت إليه لمساعدتي في إرجاع المجموعة إلى المكتبة. فاصطحبني إلى مكتب عميد الشؤون الإدارية، واقتحم الباب دون إستئذان. كان العميد في اجتماع مع إداريين من القسم، فرمى الطالب وكان اسمه يحيى، أربع نسخ من مجموعتي الشعرية على طاولته، وقال: سنضع هذا الكتاب في المكتبة، هل لديك أي مانع؟ فأجاب بالقبول، فرد يحيى بعد أن طرق الطاولة بقبضة يده وسط ذهول الجميع: حتى وإن كان لديك مانع، سننشر الكتاب، وطلب مني الذهاب إلى المكتبة والعودة إليه في حال رفض الموظفون التعاون معي!

كانت تلك الحادثة، صورة مصغرة عن المشهد العام في غزة، من حيث البلطجة والفلتان الأمني والرشى والمحسوبيات، تلك الظواهر والسلوكيات السلبية لم تكن حقيقة متأصلة في مجتمع غزة، ولكن ساهمت في بروزها وتغذيتها ممارسات السلطة الفلسطينية. كما تسببت تلك الممارسات في خلق فجوة كبيرة بين طبقة الفقراء المهمشين، وطبقة الأغنياء المحسوبين على السلطة، كان يطلق عليهم سكان القطاع «العائدون».

فمرتبات موظفي السلطة كانت عالية جداً، كانت لديهم الكثير من الامتيازات، في المقابل فإن الفقراء كانوا في يسر قبل أوسلو، حيث كان يعمل معظمهم في المنشآت الإسرائيلية، وكان لديهم ما يكفي لسد حاجاتهم الأساسية. ولكن في ظل السلطة ومع إغلاق باب العمل في الداخل الإسرائيلي بسبب الهجمات والعمليات التي كانت تشنها حركة حماس، وجد هؤلاء أنفسهم على الهامش، عاطلين عن العمل، في وقت جاء فيه آخرون و «غرباء» لينعموا بجنة غزة، التي سعى عرفات إلى تحويلها إلى سنغافورة المتوسط على حد قوله.

هذه المعادلة الجديدة خلقت حالة من الكراهية والحقد بين الطبقتين، فوجد عدد من الشباب اليائس ضالتهم في الانتماء للتنظيمات والأجنحة والكتائب العسكرية التي بدأت تنشط على الساحة مع تصاعد التوترات الأمنية على الحدود، وبرزت آنذاك ظاهرة إطلاق الصورايخ من قطاع غزة باتجاه

المستوطنات الإسرائيلية.

في المقابل قامت تلك التنظيمات باستثمار حالة الفقر واليأس والعوز لاستقطاب الشباب وتجنيد الاستشهاديين، في مشهد تحولت فيه المقاومة إلى تجارة وبازار وميدان للتنافس بين الكتائب، وهي جميعها أهداف تنظيمية ضيقة لا علاقة لها بأي مشروع تحرر وطني لا من قريب أو بعيد!

في هذا المقام، أذكر صديقاً لي من مخيم البداوي اسمه محمد يحيى انصيو، كان محمد قد عاد مع أهله إلى غزة قبل عودتنا بأشهر معدودة، لكنه لم يستطع التأقلم مع الواقع الجديد، فاعتزل الناس وعانى من مشاكل نفسية، رغم أنه تابع دراسته الجامعية وكان طالباً متفوقاً. لم تكن لديه أي ميول سياسية أو حزبية، وفجأة وبين ليلة وضحاها، وصلنا خبر استشهاده وقد شكل ذلك صدمة كبيرة لكل من عرفه.

فيما بعد تبين أن حركة حماس قامت بتجنيده وإرساله في مهمة عسكرية أشبه بعملية الانتحار، حيث تم تجهيزه بمعدات غطس، وطلب منه أن يقتحم مستوطنة إسرائيلية تطل على البحر، فكان صيداً ثميناً لعناصر الحراسة في برج المراقبة الإسرئيلي الذي رصد تحركاته منذ خروجه إلى الشاطئ.

وكان المشهد المؤسف في أعقاب تلك الجريمة، اشتباك عناصر من حركتي حماس وفتح في بيت العزاء، فكل تنظيم يريد أن يتبنى الشهيد ويرفع أعلامه ورایاته في عزائه. استمر الجدل حول أحقية كل تنظيم بالعملية الاستشهادية عدة ساعات إلى أن قطعت حماس الشك باليقين بصورة لمحمد وهو يلبس بذلة عسكرية وشارة كتب عليها «كتائب عز الدين القسام».

كنت أتابع تلك التفاصيل بغصة كبيرة. ألهذا الحد وصل الحال بنا، نتراشق في بيوت عزاء الشهداء، أولئك الذين قدموا قرباناً لإذكاء نار الأنا لدى التنظيمات في بازار المزايدة الوطنية. أذكر في تلك الأثناء انتشار ظاهرة تسجيل رسالة الوداع أو الوصية عبر شريط فيديو لشهداء أحياء ينتظرون ساعة الصفر.

لم أكن أؤمن بكل تلك التنظيمات، ولم أنحز يوماً لفصيل أو حركة على حساب أخرى، وبالرغم من نشأتي في بيت مناضل فتحاوي، فإنني لم أنتمِ يوماً لفتح. فحين بدأ وعي يتفتح شيئاً فشيئاً، وعندما بلغ نزقي الثوري منتهاه، كانت الحركة قد تراجعت عن ميثاقها الأول، وأسقطت خيار الكفاح المسلح لتحرير فلسطين، وانخرطت في تسوية سلمية كانت فيها الطرف الأضعف.

بموجب اتفاقية أوسلو، تحولت حركة التحرر الفلسطينية إلى قوة بوليسية مهمتها صيانة الأمن والحفاظ على الحدود مع الأراضي المحتلة من أي خروقات من الجانب الفلسطيني، سواء كانت فردية أو ضمن إطار تنظيمي. بمعنى آخر حررت حركة التحرر إسرائيل من كلفة الاحتلال وتحمل أعبائه أمنياً واقتصادياً.

هذا التطور الجديد، خلق صداماً بين السلطة الفلسطينية وفصائل المقاومة، خصوصاً حركة حماس، والجهاد الإسلامي بدرجة أقل.

كان ثمن ذلك الصدام، إيداع معظم قيادات حماس في سجون الأجهزة الأمنية، حيث خضعوا هناك لأبشع أنواع التعذيب والتنكيل والذل والإهانة، وربما يكفي للاستدلال على بطش وجبروت السلطة في تعاملها مع قيادات حماس، أن نعلم بأنه حين تم اغتيال مؤسس الحركة الشيخ المقعد أحمد ياسين عام ٢٠٠٤، كان يخضع للإقامة الجبرية في حيه السكني بمدينة غزة.

توالي الانتهاكات بحق رجال المقاومة، واستشراء الفساد داخل مؤسسات السلطة، والتنسيق الأمني المكشوف مع إسرائيل فيما يخص ملاحقة المجاهدين، سواء في الضفة الغربية أو في قطاع غزة، جميعها عوامل ساهمت في خلق حالة من التذمر الشعبي والرفض العام لأداء وإدارة السلطة الوطنية الفلسطينية.

وسط تلك الأجواء، وفي ظل الترهل الذي أصاب النظام السياسي الفلسطيني، دعا الرئيس محمود عباس عام ٢٠٠٦، إلى إجراء انتخابات تشريعية، وهي ثاني انتخابات تشريعية فلسطينية، وأول انتخابات تشارك فيها حركة حماس. وكانت المفاجأة اكتساح حماس نتائج الانتخابات بحصولها على ٧٦ مقعدا من أصل مقاعد المجلس التشريعي البالغة ١٣٢.

حقيقة كانت النتيجة مفاجأة حتى لقادة حماس الذين لم يتوقعوا الحصول على الأكثرية في المجلس التشريعي، ولكن ما يبرر هذا التفوق، هو عدم الرضى عن أداء السلطة حتى من موظفيها. وأذكر جيداً أن عدداً كبيراً من موظفي السلطة الذين أعرفهم بصورة شخصية، صوتوا لصالح حماس، وذلك ليس اقتناعاً ببرنامجها السياسي، بل نكاية بالسلطة الفلسطينية.

لذلك يمكن اعتبار أن نجاح حماس في الانتخابات كان نتاج احتجاج شعبي على السلطة، لا علاقة له ببرنامج الحركة الانتخابي، الذي أشك في أن يكون الناخبون قد اطلعوا عليه.

كان من الطبيعي ألا تعترف حركة فتح بالهزيمة بسهولة، ولكن المؤسف أنها لم تكتف بعدم المشاركة في حكومة شكلتها حماس برئاسة إسماعيل هنية، بل انضمت إلى الجهود الإسرائيلية والدولية لخنق الحكومة الجديدة وإعاقة عملها.

وكان من جملة ما قامت به السلطة الفلسطينية، رفض أجهزتها الأمنية التعامل مع الحكومة الجديدة، فقام وزير الداخلية آنذاك سعيد صيام، بتشكيل قوة رادعة عرفت بـ "القوة التنفيذية، وكانت أولى مهامها مهاجمة مقرات أجهزة السلطة في قطاع غزة، فنشب اقتتال وصدام مسلح يشبه كثيراً ما حدث في لبنان أثناء الحرب الأهلية.

أذكر في تلك الأحداث التي تسميها حماس حسماً، وتسميها فتح انقلاباً، كيف كانت عمليات الخطف المتبادل والبتر والقتل، تحدث بوتيرة سريعة، فكل يوم نستفيق على بيان نعي، وخطاب تهديد، ونداء استغاثة.

أثناء تلك الفترة، التزم الجميع البيوت، فالشوارع ممتلئة بالملثمين المدججين بالسلاح، تسمع صراخاً يأتي من بيت جارك، اعتقلوا فلاناً، وقتلوا آخر، من هؤلاء؟ ومن نحن بالنسبة لهم؟ لا أحد يعرف شيئاً.

كان أخي الأصغر عنصراً في جهاز حرس الرئيس، وكان متواجداً في مقر للجهاز بالقرب من الحدود الشمالية المحاذية لمعبر إيرز. كنا نقضي اليوم على الهاتف نسأله عن التطورات في محيطه، كنا نخشى على حياته. لم يكن بإمكانه العودة إلى البيت بملابسه العسكرية.

يطمأننا بأنه بخير، لا اشتباكات في محيط المقر. في إحدى المكالمات نسمع طلقات رصاص، ينقطع الاتصال .. تصرخ أمي ويبكي جميع من في المنزل، بعد عشرين دقيقة يأتي صوت أخي لاهثاً متعباً بعيداً: أنا بخير .. وصلوا قبل قليل واحتلو المقر!

أين أنت الآن، نزحف باتجاه الحدود .. طلقات أخرى، ينطق أخي بالشهادتين، وكأنه فقد الأمل في النجاة. ينقطع الاتصال ثانية: ينهار أبي بجانبي أختي الصغرى تلطم وجهها.. يستمر الحال كذلك لأكثر من ساعتين قبل أن يرن الهاتف: لا تقلقوا أنا بخير .. أتواجد الآن في بيت مزارع على الحدود، سأبقى إلى أن تهدأ الأجواء .. ربما أعود غداً!

بعد أيام من الاشتباكات، حسمت القوة التنفيذية المعركة لصالحها، أعلنت عن ذلك مساء، وفي صباح اليوم التالي، طُرق باب المنزل.

ملثم يحمل كلاشينكوف أطول منه، يسألنا إن كان لدينا أي قطعة سلاح لتسليمها. يجيب أبي بالنفي، وبعد إغلاق الباب أرى الانكسار على وجه، وأرى الخوف في عيون أمي وأخوتي .. يا إلهي ما الذي يحدث؟ إلى أين نتجه؟ أيعقل أن يحكمنا هذا الملثم!

تكرر المشهد في بيت مجاور، لكن بسيناريو أكثر جرأة، فبعدما طرق الملثم منزل رجل طاعن في السن للسؤال عن السلاح، قام الرجل بنزع اللثمة عن وجه الشاب، فإذا به شخص عرف في الحي بأنه سارق دجاج

ولديه سوابق جنائية، فكان الثمن أن استدعيت قوة إضافية وقامت باعتقال المسن وابنه، ليعودان لاحقاً ناقصين قدماً، وشحمة أذن.

تقول الإحصاءات الرسمية بأنه قتل في تلك الأحداث نحو ٣٢٢ فلسطينيا منهم ٢٣٦ في قطاع غزة و٨٦ في الضفة الغربية.

في أعقاب تلك الأحداث المؤسفة، استفردت حماس بقطاع غزة، بينما فرت قيادات السلطة إلى الضفة الغربية، لتبدأ مرحلة الانقسام الفلسطيني في ظل وجود حكومتين في غزة ورام الله، لا تعترف أي واحدة بالأخرى.

بدأت الأوضاع تزداد سوء في القطاع مع فرض حصار خانق، ساهمت في إحكامه كل من مصر والسلطة الفلسطينية، وحينما وجدت حكومة حماس نفسها في عزلة عربية ودولية، أوعزت لكتائبها بتسخين الأجواء على الحدود عبر إطلاق صواريخ محلية الصنع باتجاه المستوطنات الإسرائيلية. وكانت إسرائيل في كل مرة ترد بمسح المنطقة التي أطلق منها الصاروخ، وغالباً ما كانت تلك المناطق مأهولة بالسكان، الأمر الذي أوقع خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات.

استمر الوضع كذلك، حتى قررت إسرائيل شن هجوماً غير مسبوق على القطاع، في عملية أطلقت عليها اسم «الرصاص المصبوب»، فيما سمتها حماس معركة الفرقان.

بدأ الهجوم في السابع والعشرين من ديسمبر عام ٢٠٠٨، باستهداف مقرات أمنية تابعة لحركة حماس ما أدى إلى استشهاد أكثر من مئتي شخص وإصابة نحو سبعمئة آخرين.

أذكر في ذلك اليوم، بعض المشاعر المختلطة والمشوهة، فقد كنت أتواجد في حي الندى بمنطقة بيت لاهيا، حيث أقيم وأفراد العائلة. في هذا الحي يوجد مباني سكنية تابعة لوزارة الإسكان يطلق عليها «أبراج الندى»، وفي جوارها «أبراج العودة»، ومعظم سكان هذه الأبراج من ضباط السلطة الفلسطينية أو العائدين بموجب اتفاقية أوسلو، وقد عانوا الأمرّين بسبب

سيطرة حماس على القطاع، واعتقال أبنائهم وتعرضهم باستمرار لإهانات متكررة.

فكان مما سمعت في اليوم الأول: «لهم من الله ما يستحقون»، كانت هناك حالة من التشفي غير الإنساني، وهي دون أدنى شك مرفوضة ومستهجنة، فلا يعقل أن يشمت الفلسطيني أو يفرح لإراقة دماء فلسطيني آخر، حتى ولو كان خصماً، بل ليس من المنطق ألا يغضب ويحزن لاستهداف وقتل أخيه.

كان معظم سكان الأبراج يعتقدون أنهم في منأى من القصف، لأن إسرائيل تعلم بأنهم محسوبون على السلطة، وغير راضين عن ممارسات حماس وإدارتها لقطاع غزة.

لكن الرد الإسرائيلي بأنه لا فرق بين فصيل وآخر، وأن الكل الفلسطيني مستهدف، لم يتأخر كثيراً.. ففي اليوم الثالث، قصفت طائرات إف ١٦ خزاناً للمياه مقابل أبراج الندى، أدى إلى مقتل ثلاثة أشخاص وإصابة عشرة آخرين كنت واحداً منهم.

ففي صباح اليوم التاسع والعشرين من نفس الشهر، كنت أتابع أخبار الحرب وتداعياتها عبر التلفزيون مع أبي وأمي في صالون المنزل، حين دوى صوت قصف عنيف كان ضغطه كفيلاً بحملي من مكاني وقذفي إلى الحجرة المقابلة.

لا أقوى على فتح عيني، أسمع صوت أخي الصغير قربي. في أقل من ثلاث ثوان يسقط صاروخ آخر، لا ملاذ للنجاة .. نعانق بعضنا وننطق بالشهادتين. صراخ حولنا، زجاج يتهشم، دخان كثيف.. يركض أخي باتجاه أختي فاطمة للاطمئنان عليها، إنها بخير، أين أبي وأمي؟ لا أعلم، ننزل جميعا أسفل المنزل.. رأس أبي ينزف، نسوة يصرخن في كل مكان .. تهرع أمي تكشف عن ساقي اليسرى، نافورة دم، تبدأ بالصراخ، أتحسس موضع الألم، شظية طائشة .. أنتظر الإسعاف، بعد دقائق يفتح ممرض الباب: طفلة دون رأس وأمها في عداد الشهداء، أخجل من هول المشهد،

فأترك سيارة الإسعاف وأنسحب بإصابتي الصغيرة إلى ما توفر من قطن وشاش.

كانت تلك الضربة المحدودة، إيذاناً ببدء عملية واسعة في المنطقة الحدودية، يقرر جميع السكان المغادرة باتجاه الداخل، تتوجه أمي رفقة أخي وشقيقتي الصغرى إلى بيت أختي الكبرى في منطقة دير البلح وسط القطاع، وأخي الأكبر يأخذ عائلته إلى بيت عمه في مدينة غزة. أما أبي فيرفض المغادرة، ويقول بأنه يفضل الموت في بيته. وكذلك كان موقف العديد من كبار السن المتقاعدين.

لا أقوى على ترك أبي وحده، أقرر البقاء معه طيلة فترة الحرب التي استمرت ٢٢ يوماً. في اليوم الأول تساقطت منشورات من السماء بواسطة طائرات استطلاع إسرائيلية، تطالب جميع سكان المنطقة بالمغادرة. غادر الجميع ولم يبق سوى أنا وأبي ومعنا عشرة رجال معظمهم تجاوزا عقدهم الخامس.

تجمعنا أسفل درج في الطابق السفلي من برج مؤلف من أربعة طوابق. كان بيتنا في الطابق الأول، وقد ساهم ذلك في التردد زحفاً بين حين وآخر لجلب بعض الخضروات. فالمبنى مقابل برج مراقبة إسرائيلي يستطيع رصد كل ما يتحرك في المنطقة، ولا يفصلنا عن المدرعات الإسرائيلية سوى شارع ترابي وحزام أمني لا يتجاوز ٢ كلم.

في الأسبوع الأول كانت الكهرباء متوفرة، لذلك كان بالإمكان الاستماع إلى الأخبار عبر الراديو، كما كان بالإمكان التواصل مع الأهل المشتتين في عدة مناطق. ولكن بعد ذلك تم استهداف محطة الكهرباء في المنطقة، ففقدنا هذا الترف، وانعزلنا تماماً عن العالم الخارجي في اليوم العاشر.

خلال تلك الفترة بدأ القصف يشتد. دوي المدافع يقترب منا، وهدير الطائرات بات أكثر صخباً. نخوض نقاشاً حول مآلات الحرب، وندخل في لعبة التوقعات، لا حديث عن أفق أو أمل بالنجاه، يتركز النقاش حول الطريقة التي سنلقى فيها حتفنا، قد يتم نسف المنطقة بقذيقة بي ٥٢.. لا المكان لا

يستدعي كل ذلك، ربما صاروخ إف ١٦. يعلق آخر: بل سيقتحمون المكان ويتم اعتقالنا أو تصفيتنا بصورة جماعية.

نسمع أصواتاً عربية في الخارج، نهرع لنستطلع الوضع، شبان يسيرون بمحاذاة الأبراج، ماذا تفعلون؟ ألا تخشون على أرواحكم؟ لا يا حاج، هدنة لمدة ساعتين، بإمكانكم شراء ما يلزمكم، لكن تجنبوا التجمعات. أذهب رفقة شاب آخر، نشتري بعض الطعام على عجل، وبطاريات للراديو، لكن لاتزال الكهرباء مقطوعة، يصعب شحن الهاتف للاطمئنان على الأهل.

في اليوم الواحد والعشرين يتم الحديث عن اقتراب موعد إنتهاء الحرب، سيذيع ذلك في اليوم التالي رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت.

يتأخر الإعلان لمدة ثلاث ساعات لأن أولمرت يتابع مباراة كرة قدم في الدوري الإنجليزي. يتسبب تأخير الإعلان في سقوط المزيد من الشهداء، حيث أسفرت الحرب عن استشهاد ١٤١٧ فلسطينياً من بينهم ٩٢٦ مدنياً و٤١٢ طفلاً و١١١ امرأة، وإصابة ٤٣٣٦ آخرين.

في صباح اليوم التالي، كان الجميع على موعد من القلق والتوتر، فقد مر أكثر من ثلاثة أسابيع من القتل والدمار. استشهد المئات وجرح الآلاف، ولا أحد يعرف مصير أهله وذويه. خرجنا صباحا من مكاننا كأصحاب الكهف، ننتظر البشرى. تتوافد المركبات على المنطقة، تتعالى الزغاريد بعودة أسرة سالمة، وفجأة يعلو عويل في بيت فقد أحد أفراده .. أقف إلى جانب أبي ننتظر دورنا، لايقوى على الوقف طويلاً، يجلس وقد تصبب عرقاً، أشد على يده.. تلمع دمعة في عينه.. تصل سيارة أخي الأكبر، أهتف مهللاً يركض أبي كشاب عشريني يحضن أحفاده ويقبلهم كأنهم ولدوا للتو.

بعد دقائق، تصل سيارة أجرة، تترجل أمي وأخي الأصغر، تمتزج المشاعر بين فرحة بلم الشمل وعودة جميع أفراد الأسرة سالمين، وحزن بنبأ فقدان أحباء وأصدقاء.

كانت تلك اللحظات أشبه بيوم الحساب، فمن سلّم الله أهله كمن تلقى كتابه بيمينه، ومن فقد قريباً كمن تسلم كتابه بشماله.. على ذلك الصراط تابعت وأبي إسدال الستار على المشهد الأخير من حرب لاتزال آثارها باقية في النفس والجسد!

فيما يلي نصوص نثرية قصيرة من يوميات الحرب على غزة، كنت قد كتبتها خلال تلك الفترة العصيبة، ونشرتها لاحقاً في عدد من المواقع والصحف الإلكترونية:

«هدنة بين غارتين، فرصة لالتقاط الأنفاس على أعتاب الآخرة. نتفقد ما تبقى من أطرافنا على قيد اللهب، لا وقت للجنائز.. أيها الشهيد اخدم نسفك بنزفك. لا وقت لرفع الآذان، لا وقت لرفع الدعاء، كما لا وقت لرفع أرجل النساء. كل الدروب حمراء، كل العيون، كل الوجوه، حتى وجه السماء. يدغدغني النزيف فالتفت إلى موطئ الألم الجديد.. شظية في الساق اليسرى، وأخرى على ظهر ساعدي الأيمن، شمعتان ودمعتان تؤكدان إصابتي بالنجاة من زغاريد لا يسمعها أحد سواي. فأخجل من موتي المؤجل إلى ما لست أدري، وعلى ما لست أدري تضيق علينا الحياة، فنمتلئ بها.. نحن مرضى بالحياة. على حافة الموت نلوّح بأرواحنا لجميلات ينتظرن تحت مظلة الأمل فجراً جديدا. فحين تنتهي الحرب سنخرج من تحت أنقاضنا بكامل أناقتنا بعد أن نغسل جراحنا بماء العدل والسلام، لنكتب لحبيباتنا أجمل قصائد الحب وأروعها».

«نقاوم بقدرتنا على التخيل، بحاستنا السادسة! هذا الطريق لا يفضي إلى المقبرة، إلا إذا استطال ظلك إلى أبعد من قامة الخوف الذي يرافقك! وهذه النافذة لا تطل على الموت، ما دام الجنود منهمكين على بعد نافذتين، في حل الرؤوس المتقاطعة! مطر، مطر .. غيمة واحدة تكفي لتشييع الشهداء، فالطائرات تخشى أن تحلق مثلنا في حضرة العاصفة».

«نحمد الله في كل يوم نستيقظ فيه على فاجعة لم تصبنا! نهنئ من يعود إلينا بنصف أطرافه سالماً من الموت! ونودع من يودّ أن يقطع شارعاً لقضاء حاجة ملحة! ونقدم النصيحة لشاب يتباهى بقضاء حاجتين في يوم واحد! لا تسلم الجرة في كل مرة، يمهل الموت ولا يهمل».

«يتيماً بلا كفين أشد بهما على صمودي الأسطوري، عارياً بلا لحم يغطي ما تهشم من عظامي. حافياً بلا قدمين، حائراً أسير في جنازة العروبة لمن أقدم العزاء ؟ ولا أخوة لي ولا أصدقاء».

«من مرفأ الألم في جرحي الجديد، تقلع أشرعة الحنين، إلى صوتك الذي ينقض الوضوء ويبطل الصيام! في انتظار ما قد يسفر القدر عن غياب لا يليق بعاشق يكره الانتظار. أتيمم برماد الذكريات، أصبر ولا أفطر كي أحافظ على طعم الحرمان في شفتي. عما قليل ستمطر السماء على عطشي المدنس بالغياب بغارة عشقية أو جوية .. لا فرق».

«قد يُفسر هبوط قلبي إلى الأرض السابعة على إثر غارة عبثية قلعت أثاث البيت وانقلعت، بعد أن فصّلت من خوفي أكفاناً لمن سيموتون من بعدي إلى يوم القيامة! ولكن ما لا يفسر هو اندفاعي اللامسبوق إلى صندوقي الصغير لأطمئن على شالك الأحمر».

«سأغضّ الطرف عما سقط من شَعري خوفاً، وسأغفر لكل طائرة تأرجحت على أحبالي العصبية، لكني لم ولن أغفر لهذا التوقيت الحربي الذي جاء في يوم كنت سأطرز فيه أشهى ما خلق الله من شفاه».

«لو قدر لي أن أعود إلى جسدي الذي سيقدَّم عما قليل وليمة فاخرة على مائدة التراب، لو قدر لي ألا أكون فلسطينياً منحازاً إلى ما يتاح لي من ماء وهواء تحت هذه السماء، لو قدر لي ألا أسير فوق شارع الموت في تمام الساعة الثانية بعد منتصف القصف العشوائي، لو قدر لي أن أتأخر قليلاً قبل كتابة البيت الأخير من قصيدتي الأخيرة، لكنت سأقطف لحبيبتي من ذات البستان، الزهرة ذاتها».

«هنا في الطابق الثالث تحت الموت، بين فكي الظلام، لا نفكر بالنجاة، بل نحلق عالياً في رسم خريطة لقدر قادم على ظهر دبابة. كلٌّ يعمل لآخرته، أبي يصلي، وجار لنا لا يعرف الطريق إلى الجامع يرتل آيات من سورة الكهف بصوت مرتفع، أما أنا فتعيدني آخرتي إلى آخر يوم أشرقت فيه عيناك على وجعي، لأجد نفسي مندفعاً بقوة تفوق صوت الطائرات لاستكمال حديث ابتلعه انقطاع التيار الكهربائي حين كنا نتحدث عبر الشاشة الإلكترونية عن الصورة التي أجبرتني على رفع الراية البيضاء. لا أدري لماذا أفكر الآن في الكاميرا التي التقطت لك تلك الصورة! كيف استطاعت أن تصمد على حرّ شمسين من صيفك الحارق، كيف استطاعت أن تحافظ على اتزانها أمام أنوثتك المربكة، هل كونها أنثى يبرر هدوءها القاتل. لكن، أليس للإناث مشاعر وأحاسيس، تُرى بماذا تفكر الآن وأنا أراك تبتسمين لي في صورة جديدة على بعد قبلتين من عدستها، قد تفكر في الوقوف أمام المرآة، وقد تطلق العنان لشعرها بعد أن تلطخ شفتيها باللون الأحمر، أملاً منها بتقليص الفارق ـ ولو وهماً ـ بينكما! وقد تفكر في الإضراب عن العمل لأن الوقوف أمام كوكب هارب من المجموعة

الشمسية يستحق أجراً أكبر من ذلك الذي تتقاضاه لقاء طاعتها العمياء! وقد تفكر في ممارسة العادة السرية.. فقط تكون كاميرا عزباء أو أرملة وربما مطلقة، لا أدري. فلست قاضياً شرعياً في عالم الكاميرات، هذا إذا سلّمنا بأن في عالمها قانون ينظم أحوالها المدنية! أخيراً قد لا تفعل شيئاً، فهي ليست أكثر من آلة معدة لالتقاط الصور، تماماً كالطائرات التي تحلق فوق رؤوسنا الآن، مع فرق بسيط.. أن هذه الطائرات معدة لالتقاط أرواحنا لا صورنا».

«هنا على شفا ما تيسّر لي من حياة، أمام قنبلة موقوتة، ينسّل الخوف خطواتي، ويَعدّ معي بلا خطأ أنفاسي الأخيرة! لا شيء يسعفني، عارياً أحبو على صراط توجّعي، لا يد تمتد لي كي تعجّل في اختطافي سالماً لمن ينتظرن على أعتاب السماء.. مذاق القبلة الأولى، ولا قدر يؤجلني إلى حتف آخر أقل تطرفاً وأكثر حفاوة. وحدي هنا بلا صوت يؤرّق قيامتي، وحدي بلا ظل يضلّل مسيرة القبض على روحي المتناثرة في عتمة جسدي المؤقت! وحدي هنا، وحدي أنا أمام قارورة عطرك الفارغة».

«هل كان يجب أن تحترق غزة ويسقط هذا العدد من الشهداء والأشجار والأزهار، كي أتمكن من سماع صوتك. أهذا هو الثمن الذي يجب أن تدفعه الطبيعة لقاء تواطئها مع عاشقين مطرودين من جنتها.اطمئني، ما زلت رغم رائحة الموت التي تحيط بي حياً أرزق.. ها أنا أرزق صوتك لأخرج من حالة الموت السريري ولو مؤقتاً بفعل أحبالك الصوتية! كنت أتوخى السقوط عدداً في فاتورة الاقتتال قبل سماع صوتك. كما كنت أخشى أن تخطفني إحدى الحوريات، قبل ولادة مجموعتي الشعرية الأخيرة «قبلة واحدة لا تكفي».. ما رأيك في عنوانها؟ إنها محاولة لرد الاعتبار إلى القبلة، كما تعلمين، لم تنل القبلة حقها في أدبنا الفلسطيني. لا جديد في العدوان. الجديد هو انقسامنا المخجل، وحظي الذي يتنزه فوق كل غارة

جوية تشنها طائرات الاحتلال في سماء لا أرى فيها إلا عينيك. ما زلت أتساءل: كيف يدخل حبك في كل هذه التفاصيل. كيف يهرول بين كريات دمي الحمراء والبيضاء كما يهرول حاج بين الصفا والمروة. كيف يتوسّد كتفي على الرصيف بين بيتين: بيت شعر وبيت عزاء! كيف يقطع معي الطريق تحت وطأة قنبلة فسفورية ضلت طريقها إليّ فأصابت ظلي! هل تسمعين؟.. لاتزال السماء تمطر، والأرض تضجّ بالشهداء! أوصيك بالقمر خيراً، قبل انقطاع الخطّ أو النفس، لا فرق. فهو الكائن الليلي الوحيد الذي تعاطف معي في محنتي دونك، انظري إليه الآن، ما زال متقمصاً وجهك! سلام عليّ ما دمتِ بخير، وما دام قلبك يسأل عني، يهتف باسمي، يحن إلي. سلام إلى شفتك السفلى، وزر قميصك العلوي. سلام إلى مداد عينيك، وحروف اسمك المعتق بماء الورد والياسمين. سلام إلى صاحب الفضل في ولادة هذا النص، صوتك الذي لم يأتِ».

«قُبلة الصباح على جبين أمي، تأنيب أبي لي على تأخري في الصحو، قضاء صلاة الفجر بعد طلوع الشمس، لأن امرأة في الأربعين من غفلتها، لم تشك لي بالأمس صمت وحدتها. كوب الحليب الفاتر، وقصيدة لم تكتمل في رثاء شاعر أصابته غمزة طائشة فأردته قتيلاً. ابتسامة بريئة لطالبة صغيرة تمر تحت نافذتي بنصف زينتها حاضنة دفاترها بين توأمين لم يتعلما بعد كيف يخالفان جاذبية الرصيف. قراءة فصل جديد في رواية طويلة حول تاريخ الفلسفة - هل حقاً سنبقى في العتمة ما لم نتعلم دروس الثلاثة آلاف سنة الأخيرة.. كما قال غوتة؟ ابتسامة أخرى لطالبة تأخرت عن موعدها لأن مرآتها لم تعطها الضوء الأخضر قبل إطلاق سراح خصلة من شعرها على خدها الأيسر. انتظار مكالمة غيبية.. لعلها الأنثى التي ستقص على حكاية ليلى والذئب قبل أن أنام على ساعدها. البحث عن مفهوم ثابت للوطن بين أنقاضي الداخلية. محاولاتي الفاشلة في تعريف الحب والشعر والجمال.التحليق اليومي على بساط محمود درويش فوق حدود الإبداع. تأمل الجمال في مسلسل سوري يضجّ بالحسناوات. صلاة

الغائب على قلبي أمام قوام لا يقاوم إلا بالموت. تقصير شَعري إلى حد لا يعجب المعجبات بشِعري. انبهاري أمام طلاقة ابن أخي الصغير في قراءة الفاتحة دون أخطاء. التفكر بمعنى كينونتي الفلسطينية، لا لشيء.. فقط لشحن روحي المعنوية ورفعها إلى السماء السابعة. تفاصيل لا تخص أحداً سواي، كادت أن تموت معي حين راقصتني الحرب على إيقاع غارة جوية لم يسلم منها أحد سوى قلمي الذي أقفل فيه الآن هذا النص».

***

انتهت الحرب، وبدأ نقاش حول مسبباتها وتداعياتها، كان ذلك يتم في صوت خافت، لأن أي سوء فهم أو تقدير لامتعاض البعض قد يفسر على أنه خيانة لدماء الشهداء، فإسرائيل ليست في حاجة لذرائع كي تشن حرباً أو ترتكب مجزرة. ولكن هل كان بالإمكان تجنب تلك الحرب! سؤال خضع لسجال لايزال مستمراً حتى اليوم.

ففي أعقاب الحرب أعلنت حركة حماس انتصارها، وكذلك فعلت إسرائيل، قد تبدو الحركة محقة قياساً إلى قدرتها على الصمود والمواجهة أمام أعتى ترسانة عسكرية في المنطقة، ولكنها بالرغم من ذلك لم تحقق أياً من مطالبها، سيستمر الحصار، وستبقى المعابر مغلقة، وستزداد الأوضاع الاقتصادية سوءاً، فضلاً عن بقاء المنازل والمناطق المدمرة على حالها. لذلك أذكر نكتة تداولها شبان في غزة من باب التهكم على إعلان حماس انتصارها بالحرب، تقول: بعد انتصارين بهذه الجدارة ماذا سيتبقى لنا من القطاع! في إشارة إلى الدمار الكبير الذي لحق بالأرواح والممتلكات.

أما أنا، فقد عدت إلى الوراء قليلاً، لم تعد غزة بالنسبة لي الجزء المتاح من الوطن، بل أصبحت صورة مصغرة عن وطن مكتمل الأركان منذ انسحاب إسرائيل من القطاع عام ٢٠٠٥. وأعني بذلك أنها كانت منطقة مستقلة كاملة السيادة، تتمتع بحكم ذاتي، لديها رئيس منتخب، ورئيس وزراء، ومجلس تشريعي، ونواب منتخبون، وبساط أحمر، وإذاعة وتلفزيون، وكل مقومات الدولة!

ولكن ماذا بعد؟ وكيف تمت إدارة هذه الدولة؟ إجابة مررت عليها في سطور سابقة، بدأت بفصول من استشراء الفساد والمحسوبية والفلتان والصراعات الداخلية، وتصفية الحسابات بين مراكز القوى والنفوذ، مروراً بالعمالة والتنسيق الأمني مع الاحتلال لمطاردة وقمع المقاومين، وصولاً إلى الاقتتال الداخلي ثم الانقسام فالحرب التي لم تبق ولم تذر!

نعم، تصلح هذه الكلمات القصيرة لتكتب على شاهد فوق تراب وطن مبعثر، ها أنا أسير فوقه دون أدنى شعور بالقداسة، لا شيء يشدني لتقبيل حجر ملطخ بالدم والبارود، لا رغبة لي في السجود تحت زيتونة لم تنعم علي بظلها وزيتها.

أهذا هو الوطن؟ لم أعد أذكر من قال: «أي وطن هذا الذي كنا نحلم أن نموت من أجله، فإذا بنا نموت على يده»، وأي دولة تلك التي لا تملك سلطة منحي بطاقة هوية! ١٣ عاماً كنت خلالها مهمشاً، محروماً من ترف التمتع برقم وطني!

لا حق لك بعد التخرج في وظيفة، لا حق لك في الانضمام للمنتخب الوطني حتى وإن كنت متميزاً في لعب كرة القدم، لا حق لك بالسفر، فأنت عائد لا تحمل رقماً وطنياً.. ومن المخول بمنحي هذا الرقم؟ سلطات الاحتلال. أنت مخالف حسب القوانين الإسرائيلية، لأنك دخلت فلسطين بتصريح زيارة وكسرت مدة الإقامة القانونية! لأي منطق يخضع هذا الهراء!

تلك فضائل أوسلو، أما المفارقة المؤلمة، أن تُنعت في لبنان باللاجئ الفلسطيني، وفي وطنك بالوافد أو العائد اللبناني نسبة إلى الدولة التي جئت منها، وبين الدولتين تبقى روحك ترفرف بحثاً عن مهبط لا يدقق في بياناتك الشخصية!

أيها المخيم، هل أسأنا الظن بك؟ هل كنت وطناً في حدود خيمة، أم خيمة بملامح وطن! هل كنا قساة معك حين لم نلتفت لوداعك ونحن نهم بالرحيل، هل نسينا شيئاً خلفنا؟ تلك الخرابيش على جدرانك، نبض الأطفال وهم يلعبون في حاراتك، لهفة حاجة عند زلة قدم عابر في رصيفك، ذاك الطبق

السحري الذي لابد أن يعود ساخناً حتى في أقسى ليالي الشتاء برداً، تهافت القلوب حول برتقال الجليل، صلاة الغائب على شهداء قضوا في بئر السبع، رائحة الأحذية البالية المنبعثة من دكان أبو مصطفى، صوت أم حسن وهي تحمل البشرى، صراخ الخباز على صغار يعبثون بأرغفة العجين، كرامات الحاج حسين وهو يشد وثاق الكفن .. من قال إني بلا وطن!

تتوالى فضائل التنسيق الأمني، فتمن إسرائيل على من هم مثلي بأرقام وطنية، فأصبح عائداً بدرجة مواطن، الآن فقط أصبح لدي بطاقة هوية، وجواز سفر سيرث عن الوثيقة اللبنانية عبأ جنسيتي ومكان إقامتي واسمي الذي كتب ذات لهفة على عجل.

لا مشاريع لدي بشأن الخطوة القادمة، فمنذ أن حصلت على شهادة البكالوريوس في إدارة الاعمال، وأنا عاطل عن العمل، لا شيء يلوح في الأفق، فالحصار يزداد اختناقاً، والحياة تضيق علينا كتورم قدم في حذاء!

اصطحب أبي لننال قسطنا من الشمس، فلا أكثر وحشة من الجلوس في المنزل لتنتظر مجيء الماء أو الكهرباء! تلك عادات أدمنها سكان القطاع تحت وطأة الحصار.. عاطلون عن العمل، لا يفعلون شيئاً سوى الانتظار. انتظار الكهرباء، الماء، الغاز، الراتب، المصالحة، فتح المعابر، رفع الحصار! تلك أكبر قضاياهم وأبرز مطالبهم.. أعطني علبة سردين على حدود عام ١٩٦٧، وسأهتف باسمك كل صباح وكل حين!

نسير في طريق ترابي بمحاذاة مكتب للأونروا.. فجأة تتثاقل خطوات أبي قبل أن يقف تماماً ..

ـ ما بك؟

ـ هل ترى أولئك الصبية الذين يركضون خلف شاحنة الأونروا؟

ـ نعم

ـ قبل خمسين عاماً كنت أركض مثلهم خلف نفس الشاحنة في مخيم النصيرات.

ثم التفت إلي وتحدث بلهجة جادة، وكأنه يعي ويعني تماماً ما يقول:

ـ سافر يا بني، لا أريد أن يتكرر هذا المشهد مع أحفادي

كان صوته مخنوقاً وكأنه يخرج من حنجرة مدببة بالهزائم والنكسات!

لم أتوقع أن يتأثر بذلك المشهد إلى هذا الحد، أصمت طويلاً، وأشرد بعيداً بعيداً ..

ـ بماذا تفكر؟

ـ أفكر بكلامك يا أبي!

ـ إذن ستسافر؟

ـ نعم

ـ ولكن، إلى أين؟

ـ إلى المخيم .. مخيم البداوي!

انتهى

تعريف بالكاتب

علي أبو مريحيل كاتب وصحفي فلسطيني، ولد في ٢٧ أكتوبر/تشرين أول ١٩٨١ في مخيم البداوي للاجئين الفلسطينيين بمدينة طرابلس شمال لبنان، من أسرة تعود أصولها إلى مدينة بئر السبع التي هُجر معظم سكانها في النكبة عام ١٩٤٨. تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي في مخيم البداوي بمدارس وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (أونروا). بعد اتفاقية أوسلو وقيام السلطة الفلسطينية عاد مع والده الذي كان مناضلاً في حركة التحرير الفلسطينية إلى قطاع غزة، وهناك أكمل دراسته الثانوية ومن ثم تخرج في جامعة الأزهر بغزة وحصل على شهادة البكالوريس في إدارة الأعمال. أثناء دراسته الجامعية أصدر مجموعات شعرية صغيرة غلب عليها الطابع الرومانسي، ولاقت قصائده آنذاك انتقادات في الوسط الأدبي الفلسطيني بسبب تناقضها مع الواقع المرير الذي يعيشه سكان قطاع غزة. في عام ٢٠١٠ هاجر إلى جمهورية الصين الشعبية وبدأ ينشط في مجال الصحافة. في عام ٢٠١٣ أسس مجلة صوت العرب (أول مطبوعة سياسية تصدر عن العرب في الصين. في عام ٢٠١٥ انتقل إلى القارة الأوروبية، وأعد تقارير وتغطيات خاصة عن اللاجئين لشبكة الجزيرة الإعلامية. في عام ٢٠١٦ عاد إلى الصين وعمل بمكتب الجزيرة القطرية بالعاصمة بكين. لديه كتابان: الأول بعنوان «بانتظار نفخة البعث» يروي قصة سجين سوري لجأ إلى السويد بعد أن قضى ١٢ عاماً في سجن تدمر. والثاني بعنوان «مع الإنسان» وهو عبارة عن مجموعة مختارة من تقارير القصص الإنسانية (الفيتشر) أعدّها المؤلف أثناء تجواله بين عدة بلدان وعواصم أوروبية.